سِلْسِلَةُ رَسَائِلِ راحةِ الأَرْوَاحِ

المجموعة الأولى [1 - 5]

الرسالة الخامسة

إِنَـــارَةُ الْفِـــكْرِ

بِضَرُورَةِ الرُّجُـــوعِ إلى حِـلَقِ الذِّكْرِ

فَضَائِلُ مُجَالَسَةِ العُلَماءِ وَفَوائِدُها وآدابُهَا وأَثَرُهَا في اكْتِسَابِ التَّأدُّبِ مَعَهُمْ

تأليف

راجي رحمة ربه ذي المِنَنْ

الدكتور: أحمد خضر حسنين الحسن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

المقدمة

اللَّهُمَّ لك الحمْدُ حَمْدًا يملأُ المِيْزان، ولك الحَمْدُ عَدَدَ ما خَطَّهُ القَلَمُ وأحْصَاهُ الكِتَابُ ووَسِعَتْهُ الرَّحْمَةُ اللَّهُمَّ لك الحمْدُ على ما أعْطَيْتَ وما مَنَعْت، وما قَبَضْتَ وما بَسَطْتَ اللَّهُمَّ لك الحَمْدُ على كُلِّ نِعْمَةٍ أنْعَمْتَ بِهَا عَلَيْنَا في قَدِيْمٍ أوْ حَدِيْثٍ، أوْ خاصَّةٍ أوْ عَامَّةٍ أوْ سِرٍ أوْ عَلانِيَةٍ أو حي أو ميت أو شاهد أو غائب .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ وَ أنْعِمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأصْحَابِهِ وَأحْبَابِهِ أجْمَعِينَ عَدَدَ خَلْقِكَ وَرِضَا نَفْسِكَ وَزِنَةَ عَرْشِكَ وَمِدَادَ كَلِمَاتِكَ .

وبعد : فمن أراد أن يحفظ الله عليه إسلامه وإيمانه فلا بد له من الأدب مع ربه تعالى بتعظيمه وامتثال أمره وحسن عبادته ، والأدب مع نبيه محمد عليه الصلاة والسلام بتوقيره والاهتداء بهديه ، ثم الأدب مع أهل العلم بدينه المخلصين في نشره وتعليمه للناس ، بمعرفة قدرهم واحترامهم على اختلاف جنسياتهم وقبائلهم .

فمَنْ أخلَّ بواحد من تلك الآداب فإيمانه على خطر كبير وفهمه للدين على خطر أكبر ، لأنه يكون قد فقد الجهة التي تُمدّه بفهم الدين والعمل به، ولمَّا جهل كثير من الناس أنَّ الأدب مع أهل العلم مطلوب شرعاً - بالآيات والأحاديث - وقع البعض في الاعتداء عليهم وشتمهم والاعتداء على أعراضهم ، وقد يستبيح البعض لأنفسهم التقليل من شأن بعض العلماء لسماعه فتوى من عالِم معيَّن لم ترُق له ، فيسيء الظن به ويكيل عليه الاتهامات والشتائم ، وينسى في خضمّ ذلك أن هذا العالم ليس معصوماً ، ومهما كان خطؤه فليس لهذا الشاتم أن يتخلّى عن الآداب الإسلامية التي أمره الله تعالى أن يتحلّى بها .

وهناك ناحية أخرى أشد سوءً وخطراً وهي الرضا بالجهل بدين الله تعالى وعدم السعي لتعلمه من أهل العلم - من أهل الفقه والحديث والتفسير وغيرهم من علماء الأمة - وكل من رضي بجهله فلن تسقيم حياته على الدين ، ولن يسير إلى مرضاة ربه على الصراط المستقيم .

وليس موضوع هذه الرسالة هو بيان مكانة العلماء فحسب ، بل الحث على الأدب [1] معهم في حضورهم وغيابهم ، وضرورة الاستفادة من علمهم ، سواء أكان ذلك بحضور حلقات العلم التي

1/ الأدب مما اهتم به علماء الإسلام اهتمام بالغاً ، حتى إنهم أفردوا فيه كتباً، ولا تكاد تجد كتاباً من الكتب الجوامع في السنة إلا وتجد باب الأدب جزءاً أساسياً من أبو ابه ومن أغراضه ومقاصده، فهناك (كتاب الأدب) في صحيح البخاري ، ومع ذلك الإمام البخاري أفرد الأدب بكتاب آخر سماه (الأدب المفرد) ومن الأمثلة أيضاً : "أدب الدنيا والدين" للماوردي. ونظم ابن عبد

يعقدونها على اختلاف صورها وأشكالها فهناك الحلقات المباشرة - أعني في المساجد - و هناك القاعات الجامعية أو فصول المعاهد الدينية ، أو عبر وسائل الاتصال الحديثة بالزوم أو التيمز ، وأيضاً الاستماع إلى التسجيلات الصوتية من المواقع الإسلامية التي اهتمت بنشر العلم الشرعي ، وكذلك يمكن للراغب الاستماع إلي علومهم من خلال مواقعهم الرسمية أو عبر بعض قنوات الرائي – التلفزيون – الإسلامية ، وأعني بذلك أهل العلم الموثوق بهم إذ ليس كل من تكلم في العلم الشرعي يوثَق بعلمه .

والذي أرمي إليه هو أن يرسخ في قلب كل مسلم ومسلمة - والشباب والشابات منهم خاصة – أن للعلماء مكانة عليا في الدين - مع وجوب احترامهم - وأن اختلال تلك المنزلة يعني ضعف التدين في الحياة والابتعاد عن التطبيق الصحيح للكتاب والسنة ؛ وذلك سبب من أسباب الشقاء ،كما قال تعالى : **(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ)** سورة طه (124) ، **يرى بعض المفسرين أن المعيشة الضنك، عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقييدها، كما قال بعضهم : لا يُعرِض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه ، وكان في عيشة ضنك [2] .**

القوي رحمه الله منظومته المشهورة في الأدب والآداب، وشرحها السفاريني رحمه الله في كتابه الشهير : غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، ومن قبله ابن مفلح الذي صنف كتاب: الآداب الشرعية .

وهناك كتبٌ تتكلم بشكلٍ مخصوص عن آداب معينة -مثلاً-: "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم - لابن جماعة رحمه الله. والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي رحمه الله ؛ هذه الكتب تضمنت الآداب المتعلقة بطلب العلم .

وهناك كتاب أدب الإملاء والاستملاء - للسمعاني، وهو إملاء الحديث النبوي وكتابته، كيف يُملِي المحدّث الحديث؟ وكيف يكتبه عنه الطلاب؟ هذا له آداب، وهناك كتب في آداب الفتيا، منها آداب المفتي - للسيوطي.

ونجد هناك مباحث في بعض كتب العلماء كالأدب على النية وآداب النية، والأدب مع الله سبحانه وتعالى، والأدب مع القرآن الكريم، والأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأدب مع الملائكة، والأدب مع الصحابة رضي الله تعالى عنهم، والأدب مع النفس بالتوبة والمراقبة والمحاسبة والمجاهدة، والأدب مع الخلق باختلاف أنواعهم وطبقاتهم، ومن ذلك : الأدب مع الوالدين، والأدب مع الأولاد، والأدب مع الإخوة، والأدب فيما بين الزوجين، والأدب مع الأقارب، والأدب مع الجيران، والأدب مع أخيك المسلم، حتى الأدب مع الكافر أفردوه بالكلام، وذكروا الآداب الشرعية التي ينبغي أن يلتزمها المسلم مع الكافر، بل تكلموا حتى في الأدب مع الحيوان ومع البهائم.

وفي الكلام على حقوق الأخوة والأدب مع الإخوان في الله ذكروا آداب المجالس، وآداب الأكل والشرب، وآداب الضيافة، وآداب الاستئذان، وآداب السفر، وآداب اللباس، وخصال الفطرة، وآداب النوم، وآداب المسجد، وآداب حلق العلم، والأدب مع المشايخ، والأدب مع حاملي القرآن، والأدب مع المسنين، وغير ذلك. وربما يتصور بعض الناس أن الآداب فقط هي أشياء من باب المروءة أو أشياء مستحبة ونو افل، وهذا ليس بصحيح، بل من الآداب ما هو فرض متحتم وواجب أكيد على كل مسلم .

2- تفسير القرطبي والسعدي .

كما أتمنى أن تكون هذه الرسالة سبباً في محبة العلم الشرعي ، والسعي الجاد في طلبه كي يحصِّن المسلم نفسه ضد الشبهات ويحمي نفسه من الانكباب على الشهوات ، لأن هذا العلم هو الذي تكون به السعادة في الدنيا والآخرة .

وقد أسميت هذه الرسالة :

إِنَارَةُ الْفِكْرِ بِضَرُورَةِ الرُّجوعِ إلى حِلَقِ الذِّكْرِ

هذا والله الكريمَ أسأل أن ينفعني بهذه الرسالة وأن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم وأن تكون سبباً في مغفرة ذنبي ورفع درجتي في الجنة وأن يفعل ذلك بالقارئ الكريم والقارئة الكريمة وأن يجزي خيراً كل من يقرأوها أو ينشرها أو يدل عليها.

راجي رحمة ربه ذي المِنَنْ

أخوكم : أحمد خضر حسنين الحسن

يوم الثلاثاء : 6/ جمادى الآخرة – 1442

الموافق : 2021/1/19

تمهيد

مكانة العلماء في الدين ووجوب احترامهم والأدب معهم

للعلم والعلماء مكانة في الدين لا تنكر، وفضل كبير لا يكاد يحصر، فقد جاءت نصوص الشرع متوافرة متعاضدة تعزز من مكانتهم، وتبين فضلهم[3].

لكن لما ضعفت المنزلة في قلوب بعض المسلمين أحببت أن أذكر شيئا مما يدل على علو منزلتهم ورفيع مكانتهم بكلمات يسيرة من كلام السلف رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم و أفضل من يعرف الفضل لأهل الفضل ذووه [4] .

• **قال عون بن عبدالله رحمه الله تعالى : قلت لعمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى : يُقال: إن استطعت أن تكون عالِمًا، فكن عالِمًا، فإن لم تستطع فكن متعلمًا، فإن لم تكن متعلمًا فأحبهم، فإن لم تحبهم فلا تبغضهم، فقال عمر بن عبدالعزيز: (سبحان الله لقد جعل الله عز وجل له مخرجًا)[5].**

• **وقال الحسن البصري رحمه الله: "من طلب العلم يريد به ما عند الله، كان خيرًا له مما طلعت عليه الشمس" . ويقول أيضًا رحمه الله: الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء .**

وقال أبو بكر بن دُرَيْدٍ رحمه الله:

العالِمُ العاقِلُ ابنُ نَفسِهِ   أَغناهُ جِنسُ عِلمِهِ عَن جِنسِهِ

كُن اِبنَ مَن شِئتَ وَكُن مُؤَدَّباً   فَإِنَّما المَرءُ بِفَضلِ كَيسِهِ

وَلَيسَ مَن تُكرِمُهُ لِغَيرِهِ   مِثلَ الَّذي تُكرِمُهُ لِنَفسِهِ

• **وقال الفضيل بن عياض رحمه الله:** (عالِمٌ عاملٌ معلمٌ يُدْعَى كبيرًا في ملكوتِ السماواتِ) رواه الترمذي .

3/ سيأتي ذكرها بالتفصيل في المبحث الأول ، إن شاء الله تعالى .

4/ مقال : فضل العلماء في كلام السلف - الشيخ ندا أبو أحمد – شبكة الألوكة الأدبية واللغوية . وقد نقل الآثار من المراجع التالية : (شرح المنة: 1/ 275).وجامع بيان العلم: 1/ 236).وأدب الدين والدنيا للماوردي"54"). وتذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة صـ (70). ومفتاح دار السعادة - (1\128). والمجموع للنووي(1/ 42).وسير أعلام النبلاء-(1/ 45). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير(2/ 846). وفتح المغيث- للحافظ العراقي - (2/ 320) .

5/ كتاب العلم - لأبي خيثمة زهير بن حرب – ص(726) .

• **وقال سفيان بن عيينة رحمه الله:** أرفع الناس منزلة عند الله من كان بين الله وبين عباده، وهم الرسل والعلماء.

• **وقال سهل بن عبدالله التستري رحمه الله:** من أراد النَّظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء .

• **قال ابن القيم رحمه الله معلقًا على كلام سهل**: هذا لأن العلماء خلفاء الرسل في أممهم، ووارثُوهم في علمهم، فمجالسهم مجالسُ خلافةِ النبوةِ .

• **قال الإمام الشافعي رحمه الله : من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم .**

وقال أيضاً : مَن لا يحب العلم فلا خير فيه، فلا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة.

وقال أيضاً : ما أحد أورع لخالقه من الفقهاء .

• **وقال المزني رحمه الله: سمعتُ الشافعي يقول: مَنْ تعلَّم القرآن عظُمت قيمته، ومَنْ نظر في الفقه نبل قدره، ومَنْ نظر في اللغة رقَّ طبعه، ومَنْ نظر في الحساب جزُل رأيه، ومَنْ كتب الحديث قويت حجته، ومَنْ لم يصن نفسه لم ينفعه علمه .**

*** **** ***

• **وقال بعضهم** : **الجاهل صغيروإن كان شيخًا، والعالم كبيروإن كان حَدَثًا**. يعني غلاما صغيرا .

وصدق الشافعي رحمه الله؛ حيث قال:

تعلَّم فليس المرءُ يولدُ عالِمًا وليس أخو علمٍ كمن هو جاهلُ

وإن كبيرالقوم لا علم عنده صغيرإذا التفت إليه المحافلُ

وإن صغيرالقوم إن كان عالِمًا كبيرإذا ردت إليه المحافل

• **ويقول عبدالله بن الإمام أحمد رحمه الله:** قلت لأبي: أي رجل الشافعي؟ فإني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ قال: يا بني، كان كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، فهل لهذين من خلف؟ أو منهما من عوض؟ .

• **يقول ميمون بن مهران رحمه الله**: العلماء هم ضالتي في كل بلد، وهم بغيتي إذا لم أجدهم، ووجدت صلاح قلبي في مجالسة العلماء .

• **ويقول أيضًا رحمه الله:** "إن مثل العالِم في البلد كمثل عين عذبة في البلد .

• وقد قيل: **مثل العلماء مثل الماء، حيثما سقطوا نفعوا .**

و أنشدها أحمد بن غزال رحمه الله فقال:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها   متى يمت عالم منها يمت طرف

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها   وإن أبى عاث في أكنافها التلف

• **وقال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله:** "كنت عند أحمد بن أبي عمران، فمر بنا رجل من بني الدنيا، فنظرت إليه، وشغلت به عما كنت في المذاكرة، فقال لي أحمد بن عمران: كأني بك قد فكرت فيما أُعطي هذا الرجل من الدنيا: قلت له: نعم، قال: هل أدلك على خلة؟ هل لك أن يحول الله إليك ما عنده من المال، ويحول إليه ما عندك من العلم، فتعيش أنت غنيًّا جاهلًا، ويعيش هو عالِمًا فقيرًا؟ فقلت: ما أختار أن يحول الله ما عندي من العلم إلى ما عنده، فالعلم غنى بلا مال، وعز بلا عشيرة، وسلطان بلا رجال .

*** **** ***

• **وقال الإمام السخاوي رحمه الله:** "**إنما الناس بشيوخهم، فإذا ذهب الشيوخ فمع من العيش؟!**. يعني بالشيوخ العلماء .

• **وقال حكيم** : **مَنْ اتخذ العلم لِجامًا اتخذه الناس إمامًا، ومَنْ عُرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار.**

• **وقال النضر بن شميل رحمه الله: مَنْ أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة، فليتعلم العلم، وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به في دين الله ويكون بين الله وبين عباده.**

• **وقال ابن القيم أيضًا رحمه الله:** "العلماء بالله وأمره هم حياة الوجود وروحه، ولا يستغنى عنهم طرفة عين، فحاجة القلب إلى العلم ليس كالحاجة إلى التنفس في الهواء، بل أعظم، وبالجملة فالعلم للقلب مثل الماء للسمك إذا فقده مات، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها [6].

فمن نال العلم فقد نال شرف الدنيا والآخرة، ومن أقبل عليه واغترف منه، فقد أراد الله به الخير؛ كما جاء في البخاري ومسلم عن معاوية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(مَن يُرِد الله به خيرًا، يُفقهه في الدين).**

6/ المصدر السابق .

وقال الإمام أبو بكر الآجري رحمه الله - وهو يتحدث عن العلماء ومكانتهم - : **فضلهم على سائر المؤمنين وذلك في كل زمانٍ وأوان رفعهم بالعلم وزينهم بالحلم بهم يعرف الحلال من الحرام والحق من الباطل والضار من النافع والحسن من القبيح فضلهم عظيم وخطرهم جزيل ورثة الأنبياء وقرة عين الأولياء الحيتان في البحر لهم تستغفروالملائكة بأجنحتها لهم تخضع والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع مجالسهم تفيد الحكمة وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة هم أفضل من العبَّاد وأعلى درجة من الزهاد حياتهم غنيمة وموتهم مصيبة يذكرون الغافل ويعلمون الجاهل لا يتوقع لهم بائقة ولا يخاف منهم غائلة.**

ثم قال رحمه الله تعالى : الطاعة لهم من جميع الخلق واجبة، والمعصية لهم محرمة، مَن أطاعهم رشد، ومَن عصاهم عَنَد.. هم سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيَا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيروا، وإذا أسْفَر عنها الظلام أبصروا، وصدق الله العظيم: (يَرْفَعِ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)، وقال عزوجل: (إِنمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِن اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ).

• **ثم قال رحمه الله : العلماء في كل حال لهم فضلٌ عظيمٌ: في خروجهم لطلب العلم لهم فيه فضل، وفي مجالستهم لهم فيه فضل، وفي مذاكرة بعضهم لبعض لهم فيه فضلٌ، وفيمن تعلَّموا منه العلم لهم فيه فضلٌ، وفيمن علموه العلم لهم فيه فضلٌ، فقد جمع الله للعلماء الخير من جهات كثيرة نفعنا الله و إياهم بالعلم** [7].

قال العلامة ابن القيم رحمه -تعالى- في كتابه إعلام الموقعين عن رب العالمين: (العلماء هم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء بهم يهتدي الحيران في الظلماء وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب) .

إن محبة علماء الشريعة الربانيين، ومعرفة قدرهم، وحفظ مكانتهم، والذب عن أعراضهم، والانتصار لهم ممن بغى عليهم، منهج السلف الصالح ودليل الهدى والاتباع، وفي هذا يقول أبو حاتم الرازي رحمه الله تعالى : إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة [8].

7/ أخلاق العلماء – للآجري – (41) .

8/ مقال : تعظيم قدر العلماء وخطورة تنقصهم - للشيخ محمد بن إبراهيم السبر - بتصرف .

ومع استقرار هذا المفهوم في نفوس المسلمين عبر القرون المتطاولة إلا أنه وُجد في العقود الأخيرة ظاهرة الطعن في العلماء، والتقليل من شأنهم، ودعوة الناس للعزوف عنهم، والمطالبة بإسكاتهم، نعم كل ذلك قد وقع ،وإن طعون أعداء الملة وأذنابهم في أهل العلم ليست لذات العالم وإنما هي لأجل تبليغهم العلم، وبيانهم للحق، واحتسابهم على الناس بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر.

ولهذا التعدي على مكانة العلماء آثاراً سيئة في المجتمع ، ومن ذلك :

- **أن يفقد الناس الثقة في أهل العلم**، فلا يقبلون منهم كلامًا ولا فتوى ولا نصحًا ولا إرشادًا، فلا يكون للعلماء دور الريادة والقيادة في الأمة، فيتخذ الناس الرؤوس الجهال المضلين.

- **أن يتجرأ السفلة والسفهاء للطعن في العلماء**، والتطاول على الشريعة بعد ذلك، وإشاعة العداوة والبغضاء في المجتمع، بما ينتشر من حزبية بغيضة وتناحر وتنافر.

- **أن يتحقق هدف أعداء الملة** الذين سعوا من أجله فعنوا بالحط من كرامة علماء الدين في أعين الناس لأن علماء الشريعة صخرة ثابتة وجبال شماء تتحطم عليها معاول هدمهم وتتكسر عليها مشاريعهم التغريبية ومخططاتهم المشبوهة في مجتمعات المسلمين.

ولهذه الأسباب أطبق العلماء على أنَّ مِنْ أسباب الكفر والإلحاد القدح في العلماء، ففي غزوة تبوك استهزأ رجل من المنافقين بقرَّاء الصحابة رضي اللَّه عنهم - وهم حفظة القرآن - قائلاً: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء. فأنزل اللَّه -عز وجل- قرآناً يتلى إلى يوم القيامة: **(وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)** [التوبة:65-66] [9].

ولا بد من التأكيد، على أن الهجمات التي يتعرض لها العلماء مهما كانت حدتها وعددها، فإنها لا تنتقص من قيمتهم ومكانتهم، فالعالم الرباني الذي يقف مع قضايا أمته، ولا يحابي أحداً في رأيه وفتاويه، من الطبيعي أن يتعرض للهجوم والانتقاص من الحاقدين والغيورين، ولهذا عليه أن يصبر على ذلك، ويمضي في منهجه، فإن الله ناصره ومؤيده.

*** **** ***

9/ السابق – بتصرف .

وقال العز بن عبد السلام رحمه الله: "والعلماء ورثة الأنبياء، فينبغي أن يعرضوا عن الجهلة الأغبياء الذين يطعنون في علومهم ويلغون في أقوالهم، ويفهمون غير مقصودهم، كما فعل المشركون في القرآن المبين فقالوا: (**لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**).

فكما جُعل لكل نبي عدواً من المجرمين، جُعل لكل عالم من المقربين عدواً من المجرمين. وكيف يفلح من يعادي حزب الله ويسعى في إطفاء نور الله؟ والحسد يحمل على أكثر من ذلك، فإن اليهود لما حسدوا الرسول عليه الصلاة والسلام حملهم حسدهم على أن قاتلوه وعاندوه، مع أنهم جحدوا رسالته وكذبوا مقالته."

فمَنْ صَبَر مِنْ العلماء على عداوة الأغبياء كما صبر الأنبياء، نُصر كما نُصروا وأُجِر كما أُجروا وظَفر كما ظَفروا .

ومما يجدر التنبيه إليه، أن احترام العلماء لا يعني إضفاء القدسية عليهم، ورفعهم عن النقد والمعارضة، فهناك فرق بين الاحترام والقداسة، فإن أفتى العالم بفتوى شاذة أو خاطئة، فإننا يجوز لنا أن نبيّن مواطن الخطأ في الفتوى، بشرط أن لا نلغي مكانة العالم وقيمته. فلكل أخطاؤه، ولكل جواد كبوة [10].

*** **** ***

10/ مقال : احترام العلماء وتقديرهم.. واجب وضرورة شرعية - لأويس عثمان – موقع بصائر – بتصرف .

المبحث الأول

فضائل العلماء وعلو مجالسهم في ضوء القرآن والسنة النبوية

المطلب الأول : فضائل العلماء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية .

المحور الأول : لمحة من فضائل العلماء وعلو منزلتهم في ضوء القرآن الكريم .

المحور الثاني : : لمحة من فضائل العلماء وعلو منزلتهم في ضوء السنة النبوية.

المطلب الثاني : فضائل مجالس العلماء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية .

المحور الأول : لمحة من علو مكانة مجالس العلماء في ضوء القرآن الكريم.

المحور الثاني : لمحة من علو مكانة مجالس العلماء في ضوء السنة النبوية.

المطلب الثالث : استنباط تعظيم العلماء والتأدب معهم من قصة موسى مع الخضر عليهما السلام .

المطلب الأول

فضائل العلماء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

المحور الأول : لمحة من فضائل العلماء وعلو منزلتهم في ضوء القرآن الكريم .

المحور الثاني : لمحة من فضائل العلماء وعلو منزلتهم في ضوء السنة النبوية.

لقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية عدد كبير من النصوص الدالة على فضائل العلم ورفعة شأن أهله ولما كانت مشهورة معلومة أحببت أن أقتصر على ذكر نزر يسير منه ثم أعقي بنقطة مهم جدا وهي ما يتعلق بفضل حضور حلقات الذكر من باب التذكير بها ورفع الهمة لحضورها والاهتمام بشأنها إذ في تلك الحلقات من الخيرات والبركات في الدنيا ما لا يخطر على بال ، بل وفيها أيضا من الراحة والسعادة والطمأنينة التي لا توجد في غيرها فضلا عن كونها سبب في النعيم المقيم في الآخرة ، كما سيتبين من النصوص إن شاء الله تعالى .

المحور الأول : فضائل العلماء في القرآن الكريم : وردت آيات كثيرة في فضل العلم وأهله[11]:

1- قوله تعالى : (**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) [آل عمران:18]. فهم من شهود الله على أعظم مشهود به وهو توحيد الله عز وجل .**قال الإمام القرطبي رحمه الله :** "في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم؛ فإنه لو كان أحدٌ أشرفَ من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء " .

2- **ويكفيهم شرفًا أن الله -تعالى- رفع شأنهم، فجعلهم أهل خشيته من بين خلقه**: (**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**) [فاطر:28].

3- **و أبى سبحانه التسوية بينهم وبين الجهلة بشريعته**: (**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**) [الزُّمر:9].

4- **ورفعهم الله تعالى درجات فقال سبحانه**: (**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**) [المجادلة:11].

11/ ومن الآيات الواردة في فضل العلم وأهله : قوله تعالى : (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) [التوبة:122].

وقوله تعالى : (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [المجادلة:11].

وقوله تعالى : (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً) [طه:114].

وقوله تعالى : (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) [الزمر:9].

وقوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) [فاطر: 28].

وقوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) سورة النساء (56) .

5- **وأوجب طاعتهم فقال جل وعلا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ)** [النساء:59].وأولو الأمر كما قال العلماء : هم العلماء، وقال بعض المفسرين : أولو الأمر الأمراء والعلماء.

6- **قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)** سورة الأنبياء (7) .

قال القرطبي رحمه الله تعالى : لم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها ، وأنهم المراد بقول الله - عزوجل - : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

وقال السعدي رحمه الله تعالى : فإن حصل معكم شك - معشر كفار قريش - وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) من الكتب السالفة، كأهل التوراة والإنجيل، يخبرونكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم.

وهذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلُّم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

*** **** ***

• **وقال ابن القيم رحمه الله** : من نال شيئًا من شرف الدنيا والآخرة، فإنما ناله بالعلم، وتأمل ما حصل لآدم من تمييزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها، ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة، بما هو خير له منها بعلم الكلمات التي تلقاها من ربه.

وما حصل ليوسف عليه السلام من التمكين في الأرض والعزة والعظمة بعلمه تعبير تلك الرؤيا، ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته كما أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ **كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف: 76]؛ جاء في تفسيرها: نرفع درجات من نشاء بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم.

وقال تعالى في حق إبراهيم صلى الله عليه وسلم: ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ** ﴾ [الأنعام: 83]، فهذه رفعة بعلم الحجة، والأول رفعة بعلم السياسة.

وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلمذة كليم الرحمن له عليهما السلام وتلطفه معه في السؤال، حتى قال: ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾ [الكهف: 66].

وكذلك ما حصل لسليمان عليه السلام من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ، وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها، ودخولها تحت طاعته، ولذلك قال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾ [النمل: 16].

وكذلك ما حصل لداود عليه السلام من علم نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء، وعدد سبحانه هذه النعمة بهذا العلم على عباده، فقال: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ**﴾ [الأنبياء: 80].

وكذلك ما حصل للمسيح عليه السلام من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ما رفعه الله به إليه وفضله وكرمه.

وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم من العلم الذي ذكره الله به نعمة عليه، فقال: ﴿**وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: 113] [12].

*** **** ***

المحور الثاني : فضائل العلماء في ضوء السنة النبوية :

وورد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عدد كبير من النصوص التي تدل على علو مكانة وفضلهم ورفعة درجتهم على بقية المؤمنين ، ومن ذلك :

الحديث الأول : عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم : (فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ) [13].

من فوائده ما يلي [14]:

1- قوله صلى الله عليه وسلم :**(كفَضْلي على أدْناكم)** أي: إنَّ العالِمَ يتقدَّمُ في الشَّرَفِ والرِّفْعةِ على العابِدِ، كتَقدُّمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم على أدْنَى أصحابِه رضِيَ اللهُ عَنهم، وفي هذا

12/ مفتاح دار السعادة - لابن القيم - (1/ 521).

13/ رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الترمذي .

14/ إسلام ويب .

مبالغة شديدة في بيان فضل العالِمِ؛ إذ إنَّه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم لو قال: كفَضْلي على أَعْلاكم لكَفَى فضلًا وشرَفًا، فكيفَ وقد قال كفَضْلِي على أدْناكم؟!

2- قال الطيبي رحمه الله : في هذا التشبيه تنبيه على أنه لا بد للعالم من العبادة، وللعابد من العلم كيف لا؟ والعلم مقدمة العمل، وصحة العمل متوقفة على العلم. وللناس كلام هنا طويل، والذي يفهم من الحديث أنه أراد بفضل العالم: النافع بعلمه عباد الله بتعليم، وفتيا، وإرشاد، وتزهيد وغير ذلك من دلائل الخير، على مجرد من يقتصر على العبادة، سواء كان عالما بحيث يساوي هذا النافع للعباد بعلمه، أم دونه في العلم.

3- قوله صلى الله عليه وسلم :(إنَّ اللهَ ومَلائِكتَه وأهلَ السَّمواتِ) قيل: المرادُ بالملائكةِ: هم حَملَةُ العَرشِ، والمرادُ بأهلِ السَّمواتِ: باقِي الملائكةِ، (والأرضِ)، أي: وأهلَ الأرضِ، والمرادُ بهم: الإنسُ والجنُّ وجميعُ الحيواناتِ.

4- قوله (لَيُصَلُّون)، أي: يَدْعون بالخيرِ، (على مُعلِّمِ النَّاسِ الخيرَ)، أي: للعالِمِ؛ وذلك لِنَشرِه للعِلمِ بينَ النَّاسِ، والمرادُ بالخيرِ هنا : هو عِلمُ الدِّينِ الَّذي هو أنفَعُ لهم وما به النَّجاةُ، قيل: وفي هذا إشارةٌ إلى وجهِ الأفضليَّةِ بأنَّ نفْعَ العِلمِ مُتعَدٍّ ونفْعَ العبادةِ قاصِرٌ، مع أنَّ العِلْمَ في نفسِه فرضٌ، وزيادةَ العبادةِ نافلةٌ.

5- قوله (مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ) فيه الحَثُّ على الحِرصِ على العِباداتِ المتعدِّيةِ في النَّفعِ للغيرِ.

6- قوله (أَدْناكم) بيانٌ لِتَفاوُتِ الصَّحابةِ رضِيَ اللهُ عَنهم بعضِهم على بعضٍ في الأفضليَّةِ.

*** **** ***

الحديث الثاني : عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا ، سلك اللهُ به طريقًا من طرقِ الجنةِ ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها رضًا لطالبِ العِلمِ ، وإنَّ العالِمَ ليستغفرُله من في السماواتِ ومن في الأرضِ ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ ، وإنَّ فضلَ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا ، ورَّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ و افرٍ)[15]

15/ أخرجه أبو داود (3641) واللفظ له، والترمذي (2682)، و ابن ماجه (223)، وأحمد (21715) وصححه الألباني في صحيح أبي داود – رقم (3641) .

شرح الحديث :

لهذا الحديث قِصَّةٌ، حيثُ يقولُ كُثَيرُ بْنُ قَيْس- ويُقالُ: قَيسُ بنُ كَثيرٍ كما في رِوايةِ التِّرمذيّ-: «كُنْتُ جالِسًا عند أبي الدَّرْدَاءِ في مَسْجِدِ دِمَشقَ، فأتاه رَجُلٌ، فقال: يا أبا الدَّرْداءَ، أتَيتُكَ من المَدينةِ- مَدينةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-؛ لِحديثٍ بَلَغَني أنَّكَ تُحدِّثُ به عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال أبو الدَّرداءِ رَضِي اللهُ عنه: «فَما جاءَ بِكَ تِجارةٌ؟»، قال الرَّجُلُ: «لا»، فقال أبو الدَّرداءِ: «ولا جاءَ بِكَ غَيرُه؟»، قال الرَّجُلُ: «لا»، وهذا الاسْتِفْهامُ للإيضَاحِ عن سَببِ المجيءِ، وأنَّه لم يَأتِ لِطلَبِ تِجارةٍ أو عَرَضٍ من أعراضِ الدُّنيا، وأنَّه ما جاء به غيرُ طَلبِ ذلك الحَديثِ.

فقال أبو الدَّرداءِ رضِيَ اللهُ عنه عِندَما عَرَفَ نِيَّةَ الرَّجُلِ، وأنَّ سَفرَه إنَّما كان لطَلَبِ العِلْمِ: «فَإنِّي سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: (من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا) .. الحديث .

من فوائد هذا الحديث [16]:

1- الحَثُّ على السَّعْيِ في طَلَبِ العِلمِ (من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا).

2- «سلَكَ اللهُ به طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ»، وذلك بالتَّوفيقِ إلى عَملِ الطَّاعاتِ والخَيراتِ في الدُّنيا، أو إدْخالِه الجَنَّةَ بلا تَعبٍ في الآخِرَةِ.

3- «وإنَّ المَلائِكةَ لَتضَعُ أَجْنِحَتَها رِضًا لِطالِبِ العِلْمِ»، وهذا يَحتَمِلُ أن يَكُون مَعناه على حَقيقَتِه، أي: تَضعُ أجْنِحتَها وإنْ لم يُشَاهَد، فَتضَعُها لتَكونَ وِطاءً له إذا مَشى، أو تَكفُّ أجْنِحَتَها عن الطَّيرانِ وَتنْزِلُ لِسماعِ العِلمِ.

4- «وإنَّ العالِمَ لَيَستَغْفِرُله مَن في السَّمواتِ ومَن في الأَرضِ، والحيتانُ في جَوفِ الماءِ»، أي: تَطلُبُ له المَغفِرةَ من اللهِ إذا لَحِقهُ ذَنبٌ، أو تَستَغْفِرُ له مُجازاةً على حُسنِ صَنيعِهِ؛ وذلك لِعمُومِ نَفعِ العِلمِ؛ فإنَّ مَصالِحَ كُلِّ شَيءٍ وَمنافِعَه مَنوطةٌ به.

قال بعض العلماء : من أسباب تسخير هذه المخلوقات لتستغفر للعالم:

أولاً: أن العلماء يبينون حقوق هذه المخلوقات للناس فيقوم الناس بحقها فمثلاً يبين العالم للناس وجود الملائكة ومكانتهم ووجوب الإيمان بهم ومحبتهم في الله ويبين لهم ثناء الله عليهم في كتابه والنبي صلى الله عليه وسلم في سنته فيقوم الناس بسبب العلماء بحق الملائكة، ويبين العلماء للناس

16/ الموسوعة الحديثية وموقع الدكتور علي بن يحيى الحدادي .

الأحكام المشروعة في التعامل مع الدواب والبهائم وما يحل منها وما يحرم منها وكيف تذكى والحالات التي يحرم فيها قتلها فينالها بسبب العلماء خير كثير.

ثانياً: أن العلماء يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فيكثر الخير ويقل الشر فيحصل بسبب ذلك فتح أبواب البركات من السماء والأرض فينتفع بها الإنسان والدواب وما شاء الله من خلقه.

5- أنَّ اللهَ سبحَانَه جَعلَ العُلماءَ حامِلِينَ لِعلْم الأنْبياءِ، لِتكتَمِلُ المَسيرةُ إلى أنْ يشاءَ اللهُ رفْعَ العِلمِ ، فلو عُدم العالِم الذي يقوم بالنصح والتذكير لظهر الشر وكثر الخبث فنزلت العقوبات العامة التي تهلك الصالح والطالح والناس والدواب والأشجار والعمران.

6- التَنبيه على أنَّ كَمال العِلمِ ليس للعالِمِ من ذَاتِه، بل بما تَلقَّاه عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كنورِ القَمر؛ فإنَّه مُستفَادٌ من نُورِ الشَّمسِ .

7- **(و إنما ورثوا العلم)** دليل على أن الآيات والأحاديث الواردة في فضل العلم وأهله أن المقصود هو العلم الشرعي لأن الأنبياء إنما جاؤوا بهذا النوع من العلم ولم يورثوا للناس العلوم الدنيوية كالطب والهندسة والرياضيات وغيرها من العلوم الدنيوية.

فالعلم الشرعي به صلاح القلوب والعبادات والأخلاق والسعادة في الدنيا والآخرة ولذا لا يجوز تعلمه إلا بقصد الثواب والأجر من الله.

أما العلوم الدنيوية فمن طلبها لأجل المال والدنيا فليس عليه إثم لأن المقصود بها اصلاً إصلاح الدنيا، لكن لو تعلمها ينوي بتعلمها نفع المسلمين والإحسان إليهم كان له أجر على تلك النية الطيبة.

8- **(فمن أخذَه أخَذَ بِحظٍّ و افِرٍ)**، أي: بَنَصيبٍ تامٍ وكامِلٍ. والعُلماءُ مَنوطٌ بهم تَعليمُ طُلَابِ العِلمِ؛ فَينبَغي عليهم أن يُراعوا حُقوقَهم في التَّعلُّم والتَّعليمِ، ونَقلِ أمانةِ العِلمِ إليهم، وهذا يَستَلزِمُ من الطُّلَابِ إكْرامَ العُلماءِ أيْضًا وتَبجيلَهم[17] .

*** **** ***

الحديث الثالث : عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(مثَلُ ما بعثني الله به مِن الهدى والعلم، كمثَل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيةٌ قبِلَتِ الماء، فأنبتت**

17/ الموسوعة الحديثية – الدرر السنية - بتصرف .

الكلأ والعُشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء، فنفع اللهُ بها الناس، فشربوا وسقَوْا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قيعانٌ، لا تُمسك ماءً، ولا تُنبت كلأً، فذلك مثَل مَن فقُه في دِين الله، ونفعه ما بعثني اللهُ به، فعلِم وعلَّم، ومثَل مَن لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به).رواه البخاري واللفظ له، وأخرجه مسلم.

شرح الحديث [18]:

قوله صلى الله عليه وآله وسلم (**مثَلُ ما بعثني الله به مِن الهدى والعلم، كمثَل الغيث الكثير أصاب أرضًا**) ضرب صلى الله عليه وآله وسلم لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم، فكما أن **الغيث** يحيي البلد الميت؛ فكذلك **علوم الدين** تحيي القلب الميت .

وتلك حكمة إرسال الرسل عليهم السلام، وإنزال الكتب والشرائع، وكلما تقدمت البشرية نحو الحضارة، وكلما كثر عددها على وجه البسيطة، وكلما اتسعت آفاقها وآفاق علمها، كلما كان التذكير والتوجيه والتشريع في دائرة أوسع، وكلما كانت حاجتها إلى التفصيل أشد وأعظم، فإذا ما أضيف إلى ذلك أن كل رسول، كان يبعث إلى قومه خاصة، وإلى فترة زمنية مؤقتة كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم العامة الخاتمة، الصالحة لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، أكثر الرسالات شمولا للأحكام، وأوسعها في التعاليم والتشريعات، وقد جاءت في فترة زمنية وصلت البشرية فيها إلى انحدار وانحطاط، فكانت غيثا مغيثا، وعلاجا لأمراض انتشرت وتنوعت، وكانت كالنور في حالك الظلام، كانت كصيب من السماء، فيه غيث ونفع للأرض الطيبة الصالحة للزراعة، النقية من الحشائش والحجارة، ينبت به الزرع والنخيل والأعناب .

ثم شبه صلى الله عليه وسلم السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث:

فمنهم العالم المعلم : أي أنه يتعلم هذا الوحي ثم يعمل به ثم يعلم غيره، فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها.

ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه، غير أنه لم يعمل بنوافله، أو لم ينفعه فيما جمع له، لكنه أداه لغيره، فهو بمنزلة الأرض التي لا تنتفع بالماء لكنها تمسكه لغيرها.

قال النووي رحمه الله : النوع الثاني من الناس ، لهم قلوب حافظة ، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة ، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام ، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل

18/ ملخص من شرحي النووي والقرطبي على صحيح مسلم وموقع جامع السنة وشروحها .

به ، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم ، أهل للنفع والانتفاع ، فيأخذه منهم ، فينتفع به ، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم .

و إنما جمع في المثل بين الطائفتين الأولين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما، أي أنه ذكر أولاً طائفتين . ثم قال: (**وأصاب طائفة أخرى منها إنما هي قيعان**) فجمع بين الطائفتين لاجتماعها في صفة الانتفاع بهما.

وذكر الطائفة الثالثة مذمومة لعدم النفع بها فقال عليه الصلاة والسلام: (**وأصاب طائفة أخرى منها إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ).**

قال النووي رحمه الله : النوع الثالث من الناس ، ليست لهم قلوب حافظة ، ولا أفهام واعية ، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ، ولا يحفظونه لنفع غيرهم . والله أعلم .

الحديث الر ابع : عن أبي هريرة وعبدالله بن عمر - رضي الله عنهم - قالا: قال رسـولُ الله صلى الله عليه وســلم: (**يحمِلُ هذا العِلمَ من كلِّ خلَفٍ عدولُه ينفونَ عنهُ تحريفَ الجاهِلينَ و انتحالَ المبطلينَ وتأويلَ الغالينَ**) [19].

شرح الحديث [20]:

جعَلَ اللهُ الخَيْرَ باقيًا في هذه الأُمَّةِ، لا يَنقطِعُ حتَّى تَقومَ السَّاعةُ، حتَّى وإنْ بعُدَ أهلُ الزمانِ عن زمَنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه رضِيَ اللهُ عنهم بقُرونٍ عَديدةٍ، وذلك بفَضلِ عُلمائِهم ومُجاهِديهم.

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ العِلمَ الشرعيَّ منَ الكِتابِ والسُّنةِ، وما يَنبَثِقُ عنهما من عُلومٍ، إنَّما يَهَبُه اللهُ سُبحانَه، ويَتعلَّمُه ويَحمِلُه في كلِّ قَرنٍ وجيلٍ من أجيالِ تلك الأُمةِ على مرِّ الأزمانِ أعدَلُ الناسِ وثِقاتُهم عن غَيرِهم من أهلِ زَمانِهم؛ فهُمْ كقولِ اللهِ تَعالَى: (**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**) [آل عمران: 104] .

19/ أخرجه البزار (1/ 86) حديث (143)، و انظر التمهيد لابن عبدالبر(1/58)، وهو في المشكاة (1/ 82) حديث (248) وقال: رواه البيهقي، وقال الشيخ الألباني في تخريجه: رواه الحاكم في المستدرك وصححه، وو افقه الذهبي، ونقل هناك تصحيح الإمام أحمد للحديث، و انظر: صحيح الترغيب (102) (نقلا عن مقال :الأربعون حديثًا في طلب العلم وفضله -أبو سليمان المختار بن العربي مؤمن – شبكة الألوكة) .

20/ ملخص من الموسوعة الحديثية ومقال : حديث يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله - حسام الدين عفانة - موقع طريق الإسلام .

فإنَّ الذي يَدْعو إلى الخيرِ يكونُ أمثَلَ له من غَيرِه، فكذلك فإنَّ الذي يَعلَمُ العِلمَ يكونُ أَوْلَى الناسِ بالعَمَلِ به. فالأصل في أهل العلم أن يكونوا عدولاً ثقاة يجمعون بين العلم والعمل كما كان علماؤنا المتقدمون .

ومن وَظيفةِ هؤلاء التي تَحمَّلوا لأجْلِها هذا العِلمَ، والتي نصَّ عليها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

أنَّهم يُنَقِّحونَ دينَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويَكونونَ سَببًا في حِفظِه ممَّا حرَّفَه الجُهَّالُ، ودَسَّه الكَذَبةُ والخَدَّاعونَ، وما فرَضَه المُبتَدِعةُ وأهلُ التشدُّدِ والغُلُوِّ كأمثالِ الخَوارجِ وغَيرِهم، ممَّن أقْحَموا في دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ ما ليس منه.

وهذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم بصيانة العلم و حفظه وعدالة ناقليه وأن الله تعالى يوفق له في كل عصر خلفاً من العدول يحملونه وينفون عنه التحريف وما بعد فلا يضيع وهذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصر وهكذا وقع ولله الحمد وهذا من أعلام النبوة ولا يضر مع هذا كون بعض الفساق يعرف شيئاً من العلم فإن الحديث إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه لا أن غيرهم لا يعرف شيئاً منه[21] .

ومن فوائد الحَديثِ: أنَّ الذي يَتولَّى هذا المَقامَ في الدعوةِ إنَّما يَتعرَّضُ لأنواعٍ منَ البَلاءاتِ والفِتَنِ في دينِه ودُنياه؛ ولذلك كان ذِكرُهم في هذا الحَديثِ على سَبيلِ التفخيمِ والتعظيمِ، وإشارةً لِمَا لهم من عظيمِ الأجرِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

ومن فوائد الحَديثِ: التَّحذيرُ المُسلِمينَ من فِئةِ الجاهِلينَ والكَذَبةِ والمُنافِقينَ والأفَّاقينَ الذين يُدَلِّسونَ على الناسِ دِينَهم، والتحذيرُ منَ التشدُّدِ والغُلُوِّ في دِينِ اللهِ سُبحانَه.

ولما كان أهل العلم بهذه المنزلة فقد جاء الشرع بتكريمهم والحض على توقيرهم، ظاهراً وباطناً؛

فهم قدوة المجتمع، وبهم يرتقي وينهض، وهم الذين يبينون له أحكام الشرع ومقاصده، ويقررون له الأحكام الشرعية لما يعتري حياة أفراده من مستجدات ونوازل. فعن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه)** رواه أحمد والترمذي.

***   ****   ***

21/ تهذيب الأسماء واللغات – للنووي – (17/1).

المطلب الثاني

فضائل مجالس العلماء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

المحور الأول : لمحة من علو مكانة مجالس العلماء في ضوء القرآن الكريم.

المحور الثاني : لمحة من علو مكانة مجالس العلماء في ضوء السنة النبوية.

لقد وردت نصوص في الوحيين ببيان فضائل العلماء ورفعة شأن مجالسهم (حِلَق الذّكر) نذكر بعضها فلعلها ترفع الهمم وتزيد في الإيمان ، وذلك من خلال محورين :

المحور الأول : علو مكانة مجالس العلماء في ضوء القرآن الكريم :

دل على ذلك قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) سورة المجادلة (11) .

هذه الآية احتوت على جملة من المعاني والآداب ألخصها فيما يلي[22] :

1/ قوله تعالى : (إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا) الفسح والفسيح: الواسع من المكان،والتفسُّح : التوسيع، يقال : فسَّحت مجلسه فتفسح فيه، ومنه قيل: فسحت لفلان أن يفعل كذا، كقولك: وسعت له، وهو في فسحة من هذا الأمر.

قال القرطبي رحمه الله تعالى : (يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ) أي : في قبوركم . وقيل : في قلوبكم . وقيل : يوسع عليكم في الدنيا والآخرة .

قال الرازي رحمه الله تعالى : واعلم أن هذه الآية دلت على أن كل مَنْ وسَّع على عباد الله أبواب الخير والراحة وسَّع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة ، ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس ، بل المراد منه إيصال الخير إلى المسلم ، وإدخال السرور في قلبه ؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (وَاَللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ) رواه مسلم .

2/ قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا) النشز المرتفع من الأرض، ونشز فلان إذا قصد نشزًا، ومنه نشز فلان عن مقره: نبا، وكل نابٍ ناشزٌ، قال تعالى: ونشوز المرأة بغضُها لزوجها، ورفع نفسها عن طاعته، وعينها عنه إلى غيره .

3/ قوله تعالى : (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ). أي ارتفاع درجات أهل العلم إذا بنوه على الإيمان .

قال القرطبي رحمه الله تعالى : (وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ). في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا ، فيُرفَع المؤمن على مِنْ ليس بمؤمن ، والعالِم على مَنْ ليس بعالِم .

22/ تفسير ابن جرير والقرطبي والرازي و ابن كثير والتحرير والتنوير لابن عاشور وأحكام القرآن - للجصاص .

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى : وتنكير درجات للإشارة إلى أنواعها من درجات الدنيا ودرجات الآخرة .وضمير منكم خطاب للذين نودوا بـ (يا أيها الذين آمنوا) .

و(من) في(مِنْكُمْ) تبعيضية ، أي يرفع الله درجات الذين امتثلوا للأدب مع العلماء ففسحوا في المجالس لغيرهم .

وقال ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: (ورفعتها – الدرجات - تشمل المعنوية في الدنيا: بعلو المنزلة وحسن الصيت، والحسية في الآخرة: بعلو المنزلة في الجنة) ا.هـ.

وقال الجصاص رحمه الله تعالى : (وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) هذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان يرفع مجلس أهل العلم على غيرهم ليبين للناس فضلهم ومنزلتهم عنده ، وكذلك يجب أن يُفعَلَ بعد النبي صلى الله عليه وسلم .

فائدة :

قال القرطبي رحمه الله : روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا قام أحدكم من قام من مجلسه ، ثم رجع إليه فهو أحق به) قال علماؤنا : هذا يدل على صحة القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه ، لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبله أولى به وأحرى .

وقيل : إن ذلك على الندب ، لأنه موضع غير متملك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده . وهذا فيه نظر ، وهو أن يقال : سلمنا أنه غير متملك لكنه يختص به إلى أن يفرغ غرضه منه ، فصار كأنه يملك منفعته ؛ إذ قد منع غيره من أن يزاحمه عليه . والله أعلم .

*** **** ***

المحور الثاني : علو مكانة مجالس العلماء وفضائلها في ضوء السنة النبوية :

الحديث الأول : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ لِلَّه تعالى ملائكة يَطُوفُون في الطُّرُق يلْتَمِسُون أهل الذِّكْر، فإذا وَجَدُوا قوماً يذكرون الله عزوجل تَنَادَوا: هَلُمُّوا إلى حاجَتِكُم، فَيَحُفُّونَهُم بأَجْنِحَتِهِم إلى السَّماء الدُّنيا، فيَسألُهُم رَبُّهُم -وهو أعلم-: ما يقول عِبَادي؟ قال: يقولون: يُسَبِّحُونَك، ويُكَبِّرُونك، وَيَحْمَدُونك، ويُمَجِّدُونَك، فيقول: هل رَأَوني؟ فيقولون: لا والله ما رَأَوك. فيقول: كيف لو رَأَوني؟! قال: يقولون: لو رأوك كانُوا أشَدَّ لك عبادة، وأشَدَّ لك تمْجِيداً، وأكْثر لك تسبيحاً. فيقول: فماذا يسألون؟ قال: يقولون: يَسْألُونك

الجنَّة. قال: يقول: وهل رَأَوهَا؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأَوْهَا. قال: يقول: فَكَيف لو رَأَوْهَا؟ قال: يقولون: لو أنَّهُم رَأَوهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيها حِرصاً، وأشَدَّ لهَا طلباً، وأَعْظَم فِيهَا رغبةً. قال: فَمِمَّ يَتَعَوَذُون؟ قال: يقولون: يَتَعَوذُون من النَّار؛ قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟! قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ مِنها فِراراً، وأشدَّ لها مَخَافَةَ. قال: فيقول: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قال: يقول ملَك مِن الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هُمُ الجُلَسَاء لا يَشْقَى بهم جَلِيسُهُم) متفق عليه .

شرح موضع الشاهد من الحديث وبعض فوائده :

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى [23]:

1/ قوله صلى الله عليه وسلم: (إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر) :المراد بمجالس الذكر تلك التي تشتمل على ذكر الله بأنواع الذكر الواردة من تسبيح وتكبير وغيرهما وعلى تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى وعلى الدعاء بخيري الدنيا والآخرة ، وفي دخول قراءة الحديث النبوي ومدارسة العلم الشرعي ومذاكرته والاجتماع على صلاة النافلة في هذه المجالس نظر والأشبه اختصاص ذلك بمجالس التسبيح والتكبير ونحوهما والتلاوة حسب وإن كانت قراءة الحديث ومدارسة العلم والمناظرة فيه من جملة ما يدخل تحت مسمى ذكر الله تعالى.

قلت : هذا قول ابن حجر رحمه الله ولكن هناك رأي آخر وهو الذي يفيد بحثنا وهو قول عطاء رحمه الله : (مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع وتصلي وتصوم وتنكح وتطلق وتحج وأشباه هذا) بل لقد مال النووي رحمه الله إلى هذا الرأي حيث قال رحمه الله : (اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها، بل كل عامل لله تعالى بطاعة فهو ذاكر لله تعالى) [24]. كذا قاله سعيد بن جبير رحمه الله وغيره من العلماء.

2/ محبة الملائكة بني آدم واعتناؤهم بهم ، وفيه أن السؤال قد يصدر من السائل وهو أعلم بالمسئول عنه من المسئول لإظهار العناية بالمسئول عنه والتنويه بقدره والإعلان بشرف منزلته وقيل إن في خصوص سؤال الله الملائكة عن أهل الذكر الإشارة إلى قولهم : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن

23/ فتح الباري شرح صحيح البخاري – للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني -ج 11 - حديث رقم (6045) - باختصار.
24/ ذكره النووي في الأذكار- (ص 9).

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) سورة البقرة (30) فكأنه قيل لهم انظروا إلى ما حصل منهم من التسبيح والتقديس مع ما سلط عليهم من الشهوات ووساوس الشيطان وكيف عالجوا ذلك وضاهوكم في التسبيح والتقديس.

3/ يؤخذ من هذا الحديث أيضاً أن الذكر الحاصل من بني آدم أعلى وأشرف من الذكر الحاصل من الملائكة لحصول ذكر الآدميين مع كثرة الشواغل ووجود الصوارف وصدوره في عالم الغيب بخلاف الملائكة في ذلك كله.

4/ قَوْلُهُ (لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ لِبَيَانِ الْمُقْتَضِي لِكَوْنِهِمْ أَهْلَ الْكَمَالِ وَفِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ مُبَالَغَةٌ فِي نَفْيِ الشَّقَاءِ عَنْ جَلِيسِ الذَّاكِرِينَ فَلَوْ قِيلَ لَسَعِدَ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ لَكَانَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ الْفَضْلِ لَكِنَّ التَّصْرِيحَ بِنَفْيِ الشَّقَاءِ أَبْلَغُ فِي حُصُولِ الْمَقْصُودِ.

5/ وفيه من الفوائد أن الذي اشتملت عليه الجنة من أنواع الخيرات والنار من أنواع المكروهات فوق ما وصفتا به وأن الرغبة والطلب من الله بدخول الجنة والمبالغة في ذلك من أسباب الحصول.

***　　　****　　　***

الحديث الثاني : عن أبي سعد الخدري رضي الله عنه قال : خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ مَا أَجْلَسَكُمْ قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ قَالَ آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ قَالُوا وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ قَالَ أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : (مَا أَجْلَسَكُمْ؟) قَالُوا : (جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا) قَالَ : (آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ ؟) قَالُوا : وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ ، قَالَ : (أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ) روا مسلم.

شرح موضع الشاهد منه :

قال النووي رحمه الله تعالى : قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عزوجل يباهي بكم الملائكة) معناه : يظهر فضلكم لهم ، ويريهم حسن عملكم ، ويثني عليكم عندهم ، وأصل البهاء : الحسن والجمال ، ومنه فلان يباهي بماله ، أي : يفخر ويتجمل بهم على غيرهم ويظهر حسنهم .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى : فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى دليل على شرف الذكر عنده ومحبته له وأن له مزية على غيره من الأعمال .

ومن ثَمَّ كان من الضروري جداً مجالسة العلماء والأخذ منهم، وطلب العِلْمِ على أيديهم، ومخالطتهم، والتأدُّب على أيديهم.

كما أَوْصى الحسين بن علي رضي الله عنهما ابنَه : يا بُنَي، إذا جالستَ العلماء، فكُنْ على أنْ تسمعَ أحرص منك على أنْ تقولَ.

حتى قال الشاعر:

فَخَالِطْ رُوَاةَ الْعِلْمِ وَاصْحَبْ خِيَارَهُمْ فَصُحْبَتُهُمْ زَيْنٌ وَخُلْطَتُهُمْ غُنْمُ

وَلاَ تَعْدُوَنْ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ نُجُومٌ إِذَا مَا غَابَ نَجْمٌ بَدَا نَجْمُ

فَوَاللهِ لَوْلاَ الْعِلْمُ مَا اتَّضَحَ الْهُدَى وَلاَ لاَحَ مِنْ غَيْبِ الأُمُورِ لَنَا رَسْمُ

وكذلك تعريفُ الأجيال والشباب والفِتْيَة بالعلماء وذِكْرُهم أمامَهم وتشجيعُهم على صُحْبتِهم؛ فهي الوسيلة البارزة لتعلقِهم بهم، والسَّيْر على خُطاهم، والتعلُّق بهم لكثير فضلِهم وسَعة عِلْمِهم، فيذودون عنهم إذا اشتدتِ الأزمات، وعَلَتِ الملمَّات، ويضحُّون بأنفسهم دفاعًا عنهم إذا العدو اعترضَهم، وأراد النيْلَ منهم.

مثلما كانَ لُقْمانُ عليه السلام يُوصِي ابنَه: يا بُنَي، جالسِ العلماء، وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله يُحيي القلوبَ بنور الحِكْمة، كما يُحيي الأرضَ المَيْتَةَ بوابلِ السماء .

*** **** ***

الحديث الثالث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : (إذا مررتُم برياضِ الجنَّةِ فارتعوا) قالوا وما رياضُ الجنَّةِ ؟ قال : (حِلَقُ الذِّكرِ) [25].

شرح الحديث :

أبادر إلى القول بأن في الحديث دلالة واضحة على أن حضور مجالس العلم يندرج ضمن الأذكار بل هو أفضل الذكر خلافا لما يتبادر إلى الأذهان من كون تعلُّم العلم ليس له علاقة بالذكر.

فمَجالِسُ العلمِ وحِلَقُ الذِّكرِ فيها حياةٌ للقلوبِ وطهارةٌ للنُّفوسِ وسبيلٌ للسَّعادةِ في الدَّارَين؛ لأنَّها تُعرِّفُ باللهِ وتُقرِّبُ منه، وفيها تعليمُ صحيحِ الدِّين.

[25]/ أخرجه الترمذي (3510)، وأحمد (12545) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي .

وفي هذا الحَديثِ يُشبِّهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم هذه المجالِسَ برِياضِ الجنَّةِ، حيث يقولُ: (إذا مرَرتُم برِياضِ الجنَّةِ)، والرِّياضُ هو المكانُ الَّذي به خُضرةٌ وزهرٌ، شبَّهه برِياضِ الجنَّةِ؛ لِمَا يَحدُثُ فيها للجالِسين مِن راحةٍ وطُمَأنينةٍ في القلوبِ؛ لِمَا فيها مِن ذِكرِ اللهِ. وهو من باب تسمية الشيء باسم ما يئول إليه ، أو بما يوصل إليه ويدل عليه .

قوله : (فارْتَعوا)، أي: يُوصي النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم أن يَحرِصَ المسلِمُ على أنْ يتَحصَّلَ من حِلَقُ الذِّكرِ على كلِّ خيرٍ، والرَّتْعُ هو الرَّعْيُ والأكلُ والشُّربُ مِن هذا المكانِ، وهو كناية عن أخذ الحظ الأوفر والنصيب الأوفى من العلم .

فسأل الصَّحابةُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم فقالوا: (وما رياضُ الجنَّةِ؟)، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: (حِلَقُ الذِّكرِ)، والحِلَقُ هي جَماعةُ النَّاسِ يَجتمِعون على شَكلِ الحَلْقةِ يَذكُرون اللهَ ويَتْلون كِتابَه، ويتَعلَّمون العِلمَ فإذا رأَيتُم هذه الحِلَقَ فاغتَنِموا ما فيها، وكونوا حَريصين على ما فيها مِن ذِكرٍ، وتعلُّمٍ للعِلمِ. وفي الحديثِ: الحثُّ على لزوم مَجالسِ الذِّكرِ؛ لِمَا فيها مِن الخيرِ للنَّاسِ.[26]

لذلك أقول : لقد أحسن مَنْ قال : في الدنيا روضتان من رياض الجنة: إحداهما ثابتة والاخرى متجددة فى الزمان والمكان .

أما الثابتة فهي : المنطقة ما بين بيته صلى الله عليه وسلم ومنبره فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال :(مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي) متفق عليه.

أما المتجددة فى الزمن والمكان فهي : حِلَقُ الذِّكْروالعلم ، روى الترمذي بسند حسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال(إذا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا) قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ؟ قال: حِلَقُ الذِّكْر).

*** **** ***

الحديث الرابع : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ

26/ موقع الدرر السنية – شروح الأحاديث ، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - كتاب الدعوات – حديث (2271) نقلا عن موقع إسلام ويب .

فِيمَنْ عِنْدَهُ) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه .**وفي رواية** (مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ) .. إلخ

شرح الحديث [27]:

(لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ) وفي الرواية الأخرى: (مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ) وبناء عليه لا يشترط عليه لحصول هذا الأجر أن يكون اجتماعهم في المسجد ، بل ولو كانوا في بيت لأحد الناس كما لا يشترط في حالة المسجد أن يكون هذا الاجتماع في مسجد واحد ، بل إذا تم سماع قول العالم أو الواعظ عن طريق القنوات ، وكان المستمعون في المسجد فيُرجى أن يشملهم هذا الحديث.

قال النووي رحمه الله : **(ويلحق بالمسجد في تحصيل هذه الفضيلة : الاجتماع في مدرسة ، ورباط ، ونحوهما - إن شاء الله تعالى - ، ويدل عليه الحديث الذي بعده ، فإنه مطلق يتناول جميع المواضع ، ويكون التقييد في الحديث الأول خرج على الغالب ، لا سيما في ذلك الزمان ، فلا يكون له مفهوم يُعمل به)** [28] .

(حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ) : أي أحاطت بهم لتكونا عونا لهم وفرحا بما يقومون به من تدارس للعلم فدل ذلك على علو شأن العلم الشرعي على وجه الخصوص .

وورد في الحديث الآخر ما يفصل تلك الإحاطة ،ففي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله ملائكة سيارة، يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوهم يذكرون الله تعالى، تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا) وقد سبق ذكره .

(يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ) **الذكر هنا بمعنى دراسة العلم، وأهل السنة لهم منهج في موضوع الذكر، فالذكر في القرآن والسنة يعني: الاستغفار والتسبيح والتدبر في آلاء الله عزوجل، أو قراءة القرآن ودراسته، وقراءة السنة ودراستها وغير ذلك من علوم الشرع كما سبق بيانه .**

(وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ) ما هي الرحمة ؟ مطلق عطاء الله، الصحة من الرحمة، والسمعة الطيبة من الرحمة، والراحة النفسية من الرحمة، والوجه لله من الرحمة، والسكينة من الرحمة والتوفيق من الرحمة يعني إذا كان الله معك بالتوفيق والدعم، والتأييد، والنصر، والحفظ هذه معنى معية الله الخاصة .

27/ شرح مختصر للأحاديث النبوية – موسوعة النابلسي وموقع الإسلام سؤال وجواب .

28/ شرح النووي على صحيح مسلم (22/17) .

(وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ) : الفضل في هذه العبارات تصاعديا فبدأ بالأدنى وهو إحاطة الملائكة إلى أن وصل إلى هذه العبارة وهي تعني المباهاة بالذاكرين في الملأ الأعلى .

والمباهاة وردت في حديث آخر عن معاوية رضي الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج على حلقة من أصحابه فقال: (ما أجلسكم؟) قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَنَّ به علينا. فقال: (آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟). قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: (أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة). رواه مسلم (2701).

*** **** ***

الحديث الخامس : عنْ أبي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم: (**لَيَبْعَثَنَّ اللهُ أَقْوَامًا يَوْمَ القِيَامَةِ فِي وُجُوهِهِمُ النُّورُ، عَلَى مَنَابِرِ اللُّؤْلُؤِ، يَغْبِطُهُمُ النَّاسُ، لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ**).قَالَ: فَجَثَا أَعْرَابِيٌّ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ! حَلِّهِمْ لَنَا نَعْرِفْهُمْ ! قَالَ: (**هُمُ المُتَحَابُّونَ فِي اللهِ مِنْ قَبَائِلَ شَتَّى، وَبِلاَدٍ شَتَّى، يَجْتَمِعُونَ عَلَى ذِكْرِ اللهِ يَذْكُرُونَهُ**).[رواه الطّبراني بإسناد حسن].

شرح الحديث [29] :

هذا الحديث فيه فضلُ الاجتماع على ذكر الله تعالى؛ حتّى إنّ لأهْلِه علاماتٍ يُعرَفون بها يوم البعث، كما يعرف الشّهداء بدمائهم، والحجّاج بتلبيتهم، فكذلك يعرف هؤلاء بنور يشعّ من وجوههم على منابر من اللّؤلؤ، وما يراهم النبيّون والشّهداء حتّى يغبطوهم.

وقول الأعرابيّ:" **حَلِّهِمْ لَنَا** " أي: جلّهم لنا، والتّحلية في اللّغة تطلق على النّعت والوصف.

وذكر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم صفاتِ هؤلاء، وأهمّها: أنّهم المتحابّون في الله الّذين اجتمعوا على ذكر الله؛ لذلك جاء في مسند الإمام أحمد عن معاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه قال: سمعْتُ رسولَ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم يقول: (**قَالَ اللهُ عزّ وجل: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ**).

*** **** ***

29/ شرح كتاب الذّكر(12) منازل الذّاكرين عند ربّ العالمين – موقع نبراس الحق .

الحديث السادس : عن عمْرِو بنِ عَبَسَةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: (**عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ - وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ - رِجَالٌ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءِ، وَلاَ شُهَدَاءَ، يَغْشَى بَيَاضُ وُجُوهِهِمْ نَظَرَ النَّاظِرِينَ، يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ بِمَقْعَدِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللهِ عزّوجلّ**) قيل: يَا رَسُولَ اللهِ ! مَنْ هُمْ ؟ قَالَ: (**هُمْ جُمَّاعٌ مِنْ نَوَازِعِ القَبَائِلِ، يَجْتَمِعُونَ عَلَى ذِكْرِ اللهِ**) قال الألباني في صحيح الترغيب : حسن لغيره .

في الحديث فضيلة ظاهرة للذّكر والاجتماع عليه؛ حتّى إنّ الأنبياء وهم من هم ؟! والشّهداء وهم من هم ؟! يغبطون المجتمعين على ذكر الله تعالى، وذلك؛ لأنّ الله قرّبهم حتّى جعلهم عن يمينه، وكسا وجوههم النّور حتّى غشي كلّ ناظر.

قلت : ولا شك أن حلقات العلم من أعظم أنواع الذكر كما سبق بيانه فهي في تدخل في هذا الفضل من باب أولى .

*** **** ***

المطلب الثالث

استنباط تعظيم العلماء والتأدب معهم من قصة موسى والخضر عليهما السلام

من المواضع التي يُستفاد منها كثير من الأدب في القرآن الكريم - وما أكثر الآداب فيه - **قصة موسى والخضر عليها السلام وذلك في نقاط**[30] :

1- حينما قال موسى للخضر عليه السلام : (**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**) [الكهف:66] فهذه الآيات في هذا الموضع في القرآن الكريم تبين لنا أن موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر، فمادمت تريد أن تتعلم وأن تستفيد فلابد من مراعاة هذه الآداب:

2- أحد هذه الآداب أنه جعل نفسه تبعاً له، فقال له: (**هل أتبعك**) بخلاف من يذهب إلى الشيخ وإذا به يناطحه رأساً برأس وكلمة بكلمة، ويجلس متربصاً كي يقذف سهام الاعتراض والتجاوز على شيخه.

3- انظر كيف أن نبي الله موسى كليم الله يرحل هذه الرحلة الشاقة التي يقول في شأنها: (**لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**) [الكهف:62]، وذلك في سبيل طلب العلم، ففي في سبيل طلب العلم رحل موسى هذه المسافة الكبيرة. فلما لقي الخضر عليه السلام قال له: (**هل أتبعك**)، فموسى جعل نفسه تبعاً لمن يريد أن يتعلم منه.

4- ومن هذه الآداب أيضاً أنه استأذن في إثبات هذه التبعية، ولم يقل له: أنا تابع لك. وإنما تلطف واستأذن فقال: (**هل أتبعك**) يعني: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك؟ وبلا شك أن هذه مبالغة عظيمة في التواضع من موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

*** **** ***

5- وأيضاً قال: (**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ**) [الكهف:66] فهذا يتضمن الإقرار على نفسه بالجهل، وإقراراً لأستاذه بالعلم، فهناك عالم وهناك متعلم مفتقر إلى هذا العلم ولذلك قال موسى عليه السلام: (**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**) [الكهف:66] فأثبت أنه طالب علم مفتقر إلى ما عنده من العلم، ثم قال: (**عَلَى تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**) و(**من**) هنا للتبعيض، يعني: من بعض ما علمك الله سبحانه وتعالى. فهذا أيضاً -بلا شك- مشعر بالتواضع، وكأنه

30/ هذا هو محصل ما ذكره الفخر الرازي في هذا الباب (نقلا عن محاضرة : حرمة العلماء - للشيخ : محمد إسماعيل المقدم – محاضرات مفرغة – إسلام ويب) .

يقول له: لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً لك في العلم ، بل أطلب منك أن تعطيني جزءاً من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءاً من ماله.

6- قال موسى عليه السلام: **(أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ)** إشارة إلى الاعتراف بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي علمه ذلك العلم، لأن الفعل (عُلِّمَ) مبني لغير معلوم وفي ذلك نسبة الفضل إلى صاحبه والمفيض به وهو الله عز وجل، وقوله: **(رُشْدًا)** هذا طلب منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل للإنسان لحصلت له الغواية والضلال. وقوله: **(أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ)** طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، ولم يقل: أن تعلمن مما تعلَّمتَ ؛أو: تعلمن مما عندك من العلم. وإنما أشار إشارة عظيمة جداً هنا فقال: **(أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ)** وفي هذا إشارة في غاية التهذيب والأدب والتواضع، أي أنه كما علمك الله فعلمني مما علمك الله. يعني: عاملني بجنس ما عاملك الله به. ولعل هذا هو حكمة قوله: **(مِمَّا عُلِّمْتَ)** وعدم قوله: مما عندك من العلم. أو: مما تعلمت.

وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك علي عند هذا التعليم شبيهاً بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم، ولهذا شاع في العبارة المشهورة على ألسنة الناس: **أنا عبد من تعلمت منه حرفاً**. أو: **من علمني حرفاً صرت له عبداً**. وطبعاً ليس معناها العبودية التي هي عبودية من دون الله، لكن المقصود العبد الرقيق، يعني أنه يملكني كالعبد أو الرقيق.

***   ****   ***

7- كذلك قوله: **(أتبعك)** يدل على طلب متابعته مطلقاً في جميع الأمور غير مقيد بشيء دون شيء. وأيضاً ثبت بالأخبار الصحيحة أن الخضر عرف أولاً أنه من بني إسرائيل؛ لأن موسى لما أتى إلى الخضر عليه السلام قال له: من أنت؟ قال: موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ فالخضر عرف أن الذي يحادثه هو من بني إسرائيل، وأنه موسى صاحب التوراة، وهو الرجل الذي كلمه الله عز وجل من غير واسطة، وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثم إنه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع، وذلك يدل على كونه عليه السلام آتياً في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به؛ لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشد، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد؛ لأنه يعرف قيمة العلم.

8- وكذلك قال موسى عليه السلام: **(هل أتبعك على أن تعلمن)**، فلم يطلب على تلك المتابعة شيئاً غير التعليم، كأنه قال: لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه، ولا غرض لي إلا طلب العلم.

*** **** ***

المبحث الثاني

فوائد حضور حِلَقِ الذِّكْر في ضوء الكتاب والسنة

لا شك أن المراد ليس مجرد حضور حلقات العلم - كمستمعين - بل هو طلب العلم والاستفادة منه في ديننا ودنيانا، كما أنه من المعلوم ضرورة أن كلا من الدنيا والآخرة لا تنال إلا بالعلم ، ولا يستطيع أحد أن يحيط علما بفوائد العلم هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى لقد رضي كثير من المسلمين بالجهل بدينهم، مع الحرص التام على تعلم ما يتعلق بدنياه - فقد يعيش الشاب المسلم - وكذلك الشابة -إلى أن يتخرج من الجامعة وهو يجهل أبسط حقائق الإيمان وأركان الإسلام وفروض العبادات وشروطها ومبطلاتها وأمراض النفوس وكيفية مداواتها ومع ذلك لا يشعر بهذا النقص الكبير في شخصيته وحياته مع أن العلم بدينه هو أمر واجب وهو أهم شيء في هذه الحياة ولا خير فيمن يظل جاهلا بدينه ولو كان من أشهر المتخصصين في أدق العلوم الدنيوية [31].

ولذا أحببت أن أذكر هنا بعضا من تلك الفوائد تذكيرا لطلاب العلم وتحفيزا لعامة المسلمين، وذلك من خلال النقاط الآتية [32]:

1/ بالعلم يرتفع قدر الإنسان : فقد رفع الله قدر آدم عليه السلام وأمر الملائكة بالسجود له قال تعالى : **(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)** البقرة (31) هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة ، بما اختصه به من علم أسماء كل شيء دونهم .

فآدم عليه السلام لما أنبأ الملائكة بأسماء وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم الله بالسجود له على وجه التحية والتكرمة، تعظيماً له واعترافاً بفضله واعتذاراً عما قالوا فيه قبل ذلك، فهذا الكلام صريح في أن الأمر بالسجود كان بعد أن علمه الأسماء، فيكون على نفس الترتيب الوارد في القرآن [33].

31/ ولا يعني هذا أنني أقلل من شأن العلوم الدنيوية ولكن نحن للأسف لم ننصف أنفسنا في طلب العلم إذ طلبنا العلم الدنيوي وأجهدنا أنفسنا في تحصيله وربَّينا عليه أولادنا ذكورا و إناثا ، بينما أهملنا العلم الديني إهمالا تاما حتى وصلنا إلى درجة من الجهل اللا مقبول بحال من الأحوال بل صار العلم الشرعي في نظر البعض وكأنه من سقط المتاع .

32/ مقال : فوائد طلب العلم – موقع موسوعة كله لك ومقال : أهمية طلب العلم في الإسلام - موقوع موضوع – بتصرف وزيادات .

33/ تفسيري ابن كثير والقاسمي .

ولأهمية وفائدة العلم البالغة فقد ارتفع الإنسان من خلال طلبه للعلم، بحيث أصبح بعلمه المخلوق الأسمى بين جميع الخلق وأصبح سيداً في الأرض[34] بلا منازع، وحتى يحافظ الإنسان على ارتقائه في سلم المجد فلا بد له من أن يستمر في طلب العلم لأن العلم كالنهر الجاري يستفيد منه من يغترف من نبعه المتدفق، وطلب العلم لا يتحدد بمكان معين كأن يطلبه الناس في الجامعات أو المدارس بل هو شامل عام ولا يتحدد بمكان دون آخر ولا بزمان ولا بعصر دون عصر ولا مرحلة عمرية دون أخرى كما في حياة الإنسان .

*** **** ***

2/ بالعلم أنت في مزيد من الفضائل وغيرك في نقص : أنت بطلبك للعلم تكون قد تعلمت شيئا جديدا ووجدت بغيتك من العلم النافع الذي تنشده35، ولا شك أن المعلومة التي تدركها بشق الأنفس ومن خلال الاجتهاد في سبيل الحصول عليها فإنها أكثر رسوخا في الذهن من غيرها وتترك

34/ يخطئ العض فيقول : الإنسان سيد الأرض مع أن السيد هو الله فلا يصح أن يكون الإنسان سيد الأرض ولكن سيدا في الأرض .

35/ تنبيه هام في حكم طلب العلم : تكلّم العلماء في حكم طلب العلم سواء كان المقصود بذلك العلم الشرعي أو غيره من العلوم، ويجدر الإشارة إلى أنّ الحكم الشرعي للعلم يصدق على جميع أنواع الأحكام التكليفية الخمسة التي هي الفرض والاستحباب والإباحة والكراهية والتحريم، وفيما يلي بيان شيءٍ من تلك الأحكام مع توضيحها ببعض الأمثلة:

طلب العلم فرض عين: يكون طلب العلم فرضَ عينٍ على جميع المكلّفين، فيجب على كل مسلمٍ بالغٍ عاقلٍ أن يسعى إلى تحصيل تلك العلوم والإلمام بها، فإن قصَّر في ذلك أُثِم شرعاً، ويصدُق ذلك بحق العلوم التي يجب على كل مسلم معرفتها؛ كعلوم الشريعة التي تتعلّق بأحكام العبادات؛ كالصلوات والزكاة والحج والطهارة وأحكام الصيام وما يتعلق بالبيع والشراء، فهذا النوع من العلوم لا تستقيم عبادة المسلم لربه دون معرفته به.

طلب العلم فرضٌ على الكفاية: ويصدق ذلك على العلوم التي تكون الأمة الإسلامية بحاجةٍ لها ولا تستقيم أمور الحياة إلا بها، فإذا تعلمها فئة من الناس (حتى اكتفت الأمة بهم) سقط الحكم عن الباقين، وإن لم تكتفِ الأمة بمن تعلَّم تلك العلوم واحتاجت لغيرهم أُثِم الجميع حتى يصل الحد بالأمة في تلك العلوم إلى درجة الكفاية، وتلك العلوم مثل: علم الطب والصيدلة ومعرفة أحكام الإرث والوصايا، قال ابن عبد البر: (قد أجمع العلماء على أنّ من العلم ما هو فرض عين متعين على كل امرئ في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع).

طلب العلم مندوبٌ شرعاً : ويكون ذلك في باقي العلوم التي تعتبر مكملةً للعلوم المفروضة؛ كعلم الفقه الذي من خلاله يتعلّم المسلم ما يتعلق بالشرائع وكيفية استخراج الأحكام من الأدلة النقليّة، أو علم الأصول والتفسير وغير ذلك من العلوم الشرعية.

طلب العلم محرّمٌ شرعاً : ويصدق ذلك في حق بعض العلوم والمعارف التي تؤدي إلى إلحاق الضرر بالناس؛ كتعلُّم السحر والعرافة والدجل والكهانة وغير ذلك.(نقلا عن موقع موضوع) .

أثرا في نفسك لأنك أنت الذي طلبتها وسعيت من أجلها ولم تأتك على سبيل التلقين وبدون تحضير مسبق.

3/ العلم سبب في الارتقاء بالشخصية المسلمة : فطالب العلم ذو شخصية رفيعة وذو مكانة محترمة من الجميع، فهو ساع نحو العلم لا لغيره، ولأجل ان تعرف أن فلانا كان سعيه دوما لاكتساب العلم وطلبه فهذا يضع في داخلك احتراما لشخصه وإجلالا لقدره ويكون بذلك كأنه شامة بين الناس.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11]. وقد سبق تفسيرها .

ولأهل القرآن رفع خاص كما في قوله صلى الله عليه وسلم (إن اللهَ يَرفعُ بهذا الكِتابِ أقْواماً ويَضَعُ به آخَرِينَ) رواه مسلم وأحمد . وذلك لأن هذا القرآن هو أصل العلم ومنبع العلم وكل العلم .

ومعناه أن هذا القرآن يأخذه أناس يتلونه ويقرأونه، فمنهم من يرفعه الله به في الدنيا والآخرة، ومنهم من يضعهم الله به في الدنيا والآخرة، من عمل بهذا القرآن تصديقاً بأخباره، وتنفيذاً لأوامره واجتناباً لنواهيه، واهتداء بهديه، وتخلقاً بما جاء به من أخلاق - وكلها أخلاق فاضلة - ، فإن الله تعالى يرفعه به في الدنيا والآخرة.

4/ العلم سبب في تحقيق المناعة الذاتية ضد الأفكار الهدامة والطاقات السلبية: المنبعثة من أفواه الحمقى وأصحاب الهمم الوضيعة، فترى الشخص المثقف وطالب العلم لا يقع في فخاخ الوهم وشرك الغفلة بسهولة لأنه ادرى بالحق و أين هو ويعلم من تجارب الآخرين التي اطلع عليها طريقة كيف تصبح وتكون النجاة وتعرف على ما هى سبيلها. قال تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) سورة الزمر(9).

*** **** ***

5/ بالعلم تتحقق الثقة بالنفس : لأنك بطلب العلم أرضيت روحك وأعطيتها حقها من العلم وهذا جانب النور والسعادة لدى المتعلمين. أنت بطلب العلم تكسب رضا الله عز وجل، لأن الدين حض على طلب العلم، بل إن أول آية نزلت في القرآن الكريم هي (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) سورة العلق (1)، ولولا أهمية وفائدة العلم وفائدته لما أمرنا به ربنا جل جلاله.

6/ طلب العلم يوصل إلى معرفة الله و إفراده بالألوهيّة والعبادة : كما أنّ المسلم من خلال طلبه للعلم والإمعان في مظاهر قدرة الله في مخلوقاته سيصل إلى توحيد الله وتنزيهه عن جميع صفات النقص والخلل، قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) سورة محمد(9).

فالناظر في الكون وجزئياته وتفاصيله و إبداع صنعه سيظهر له قدرة الله في خلقه وإحسانه في تدبير أموره؛ ممّا ينفي عنه الشريك والمثيل.

قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) سورة آل عمران (190-191).

فبهذا يعلم المسلم أن طلب العلم هو أساسُ الوصول إلى صحةِ الاعتقادِ وتمامِ العباداتِ؛ من خلال معرفة ما يجب وينبغي على المسلم القيام به، وما ينبغي عليه الانتهاء عنه.

7/ طلبُ العلمِ عبادةٌ موصِلةٌ إلى رضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم : لأن طلب العلم طريقٌ يهيّؤه الله لعبده حتى يصل به إلى الجنة، ففي الحديث قال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ).[رواه مسلم – حديث (2699)] .

فبطلب العلم ينال المسلم ويكسبُ خشية الله ومخافته، ويوصله علمه إلى التواضع للخَلق ولين الجانب لهم وبسط يد الرحمة والمحبة بينهم، قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ). سورة فاطر (38).

8/ أجر طلب العلم يبقى حتى بعد انقطاعِ عمل الإنسان بانتهاء أجله : فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: (إذا ماتَ الرجلُ انقطعَ عملُهُ إلَّا من ثلاثٍ ولدٍ صالحٍ يدعو لَهُ، أو صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ يُنتَفَعُ بِهِ).

الشاهد قوله :(أو علمٍ يُنتفعُ بِهِ) والمراد العلم المستمد من كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون توريثه بالتعليم، والتأليف، والنشر، ونحو ذلك، وها نحن يا عباد الله نذكر علماء ماتوا من مئات السنين، ونترحم عليهم، وندعو لهم، هذا هو العلم النافع الذي يبقى للإنسان بعد وفاته، وكلما كان العلم أكثر نفعًا، وأوسع انتشارًا، كلما كان أعظم ثوابًا وأجرًا.

ويدخل في ذلك من دعا إلى هدى، فإن له مثل أجر من تبعه، ولو كان ذلك بعد وفاته يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا) [36].

*** **** ***

/9 طلب العلم الشرعي دليلٌ على خيريّةِ العبدِ : وأنّ الله قد اصطفاه بأن يسّر له طلب العلم؛ خصوصاً علم الفقه وسائر العلوم الشرعية الأخرى على وجه الخصوص، كما قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهْه في الدِّينِ) متفق عليه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : الْفِقْهُ فِي الدِّينِ : فَهْمُ مَعَانِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، لِيَسْتَبْصِرَ الْإِنْسَانُ فِي دِينِهِ ، أَلَا تَرَى قَوْله تَعَالَى : (لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) التوبة (122).

فَقَرَنَ سبحانه الْإِنْذَارَ بِالْفِقْهِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْفِقْهَ مَا وَزَعَ عَنْ مُحَرَّمٍ ، أَوْ دَعَا إلَى وَاجِبٍ ، وَخَوَّفَ النُّفُوسَ مَوَاقِعَهُ ، الْمَحْظُورَةَ [37] .

وقال النووي رحمه الله : فِيهِ فَضِيلَةُ الْعِلْمِ ، وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ ، وَالْحَثِّ عَلَيْهِ ؛ وَسَبَبُهُ : أَنَّهُ قَائِدٌ إِلَى تَقْوَى اللَّهُ تَعَالَى[38].

وقال الغزالي رحمه الله تعالى : أقل درجات العالِم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها .. فإنَّ مَنْ لا يعلم حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذّتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل؛ فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك ، فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ؟ [39].

*** **** ***

/36 الأعمال الخالدة بعد الموت - سعد بن تركي الختلان – موقع طريق الإسلام .

/37 الفتاوى الكبرى – لابن تيمية - (6/ 171) ، وينظر: مجموع الفتاوى"- (20/ 212) - نقلا عن موقع الإسلام سؤال وجواب - شرح حديث : (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ) .

/38 شرح النووي على مسلم - (7/ 128) - نقلا عن موقع الإسلام سؤال وجواب - شرح حديث : (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ) .

/39 إحياء علوم الدين – (1/ 223) .

وفي شرح الحديث كلاماً غاية في الأهمية والروعة للعلامة الحافظ ابن حجر رحمه الله حيث يقول: ونكَّر (خيرا) ليشمل القليل والكثير، والتنكير للتعظيم لأن المقام يقتضيه .

ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين : أي بتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع - فقد حُرم الخير. وقد أخرج أبو يعلى حديث معاوية من وجه آخر ضعيف وزاد في آخره : (ومن لم يتفقه في الدين لم يبال الله به) والمعنى صحيح، لأن مَن لم يعرف أمور دينه لا يكون فقيها ولا طالب فقه ، فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به الخير، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس ، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم [40].

مفهوم الفقه عند حجة الإسلام الغزالي رحمه الله حيث يقول : ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ، ويدلك عليه قوله عز وجل: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (التوبة: 122).

وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له .

وقال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا) (الأعراف: 179).
وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديما وحديثا.

وقال تعالى: (لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ) (الحشر: 13). فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه .

ومن الأدلة من السنة : لمَّا روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم: (لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب)[رواه أبو داود بإسناد حسن]. قال فالتفت أنس - إلى زيد الرقاشي وزياد النميري وقال (لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا إنما كنا نقعد فنذكر

40/ فتح الباري شرح صحيح البخار – لابن حجر – الجزء الأول - باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين – نقلا عن موقع إسلام ويب .

الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه في الدين ونعد نعم الله علينا تفقُّهاً) فسمّى تدبرَ القرآنِ وعدَّ النعمِ تفقها.

وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله أي أهل المدينة أفقه فقال : أتقاهم لله تعالى فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه والتقوى ثمرة العلم الباطني دون الفتاوى والأقضية[41] .

*** **** ***

41/ إحياء علوم الدين – للغزالي – الكتاب الأول - الباب الثالث: فيما تعده العامة من علوم الدين وليس منه وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره.

المبحث الثالث

أهم آداب حضور حِلَقِ الذِّكْر

مدخل : من هو المخاطب بهذه الآداب .

الأدب الأول : أن يربط الدارس العلم بالإيمان بالله تعالى .

الأدب الثاني : أن يخلص الدارس في طلبه للعلم وحضوره للدرس .

الأدب الثالث : استحضار نية الاستنارة بعلم المعلِّم وليس مجادلته أ وإظهار ضعفه .

الأدب الرابع : التواضع مع الشيخ خاصة وبقية الناس عامة .

الأدب الخامس : سلامة الصدر تجاه الشيخ خاصة والناس عامة .

مدخل

من هو المخاطب بهذه الآداب

كان من المفترض أن يكون المخاطَب بهذه الآداب ثلاث فئات : الشيخ - أو الأستاذ - الذي يقيم الحلقة – أو الحصة الدراسية - والطالب الذي التزم بالدراسة على يدي الشيخ ومحب جاء ليستمع إلى بعض الدروس بقصد الاستفادة من مادة علمية بعينها دون أن تكون له نية التزام بالدراسة .

ولا فرق بين أن يكون مكان الدرس المسجد أو المدرسة أو الجامعة أو عبر بعض التطبيقات في الانترنت ... وسواء أكان هناك لقاء مباشر أو غير مباشر لأن ذلك كله لا يعفي من الالتزام بتلك الآداب ... هذا من جهة .

ومن جهة أخرى نجد أن هذه الآداب متنوعة، فهناك أدب الأستاذ مع تلاميذه ومحبيه على حد سواء ، وكذلك العكس وهو أدب التلميذ مع أستاذه ، وهناك أيضاً أدب التلميذ مع زملاء الدراسة أو زائري الشيخ وهناك أدب المحب الزائر للشيخ مع الشيخ ومع تلاميذ الشيخ كما أن الجميع مطالب بالأدب مع المادة العلمية التي تدرس وهناك أدب خاص بمكان الدرس أو قاعة الدراسة[42].

ومما هو معلوم أن كل نوع من هذه الآداب يحتاج إلى تأصيلات وتفريعات كثيرة ، بحصولها تتم الاستفادة التامة بحِلَق الذكر أو قاعات الدراسة وما يتبع ذلك من بركات العلم والعمل والانتاج العلمي سواء أكان دينيا أو دنيويا ؛ وعلى قدر التقليل من شأنها وعدم الالتزام بها يضيع العلم ويدخل الطلبة والمعلمون في مجموعة من الخسائر في تدينهم وفي كسبهم الدنيوي و انتاجهم العلمي أيا كان نوعه أو مجاله، و أقل تلك الخسائر قلة البركة فيما يتعلق بالعلم الذي تمَّت دراسته أو الإنتاج العلمي الذي انتجوه.

*** **** ***

42/ لطلب العلم آدابٌ ذكرها أهل العلم في مصنفاتهم التي صنفوها في ذلك؛ منها: "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" للخطيب البغدادي، و"تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم" للإمام ابن جماعة، و"آداب الطلب" للشوكاني، و"حلية طالب العلم" للشيخ بكربن عبدالله أبوزيد رحمهم الله.وقد قام بشرحه فضيلة الشيخ محمد ابن صالح بن عثيمين رحمهم الله جميعا .

ولكن لما كان منهجنا في الكتاب لا يتسع إلى جميع هذه الأنواع من الفئات والآداب اقتصرت على نوع واحد يخاطب فئتين وهما **التلاميذ والمحبين** ولا فرق بينهما فيما يجب التزامه مما ذكرته هنا من آداب (وهي خمسة فقط) ، وذلك من خلال النقاط الآتية : فأقول - مستعينًا بالله تعالى طالبًا منه التوفيق والسَّداد والقبول - :

الأدب الأول : أن يربط الدارس العلم بالإيمان بالله تعالى : ولا أقصد هنا العلم الشرعي فحسب بل كل علم تحتاج إليه البشرية لإعمار الأرض وإصلا ح الحياة ، ومن هنا يطيب لي أن أنقل لك ما قاله أحد الباحثين : ليس أول ما نزل من القرآن الكريم ﴿اقْرَأْ﴾ فحسب، كما يتردد على الألسنة، بل هو: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1]؛ لأن الأمر لا يتعلَّق بمجرد القراءة، ولكن بالقراءة الواعية؛ أي: إن المطلوب لا يقتصر على طلب العلم.

وإنما العلم المترافق مع الأخلاق الإيمانية، فإن خلا منها، تحوَّل إلى مصدر للغرور والكبرياء؛ سواء بالنسبة للأفراد، أو الأمم، وحال الغرب دليل ناطق على هذه الحقيقة، فقد اتجهوا هناك - في القرون المتأخرة - إلى تحصيل المعارف عن الكون والإنسان، فاستكشفوا: الأرض وباطنها، والفضاء وأرجاءه، والبحار وأعماقها، ووقفوا على سنن التسخير والقوانين التي أودعها الله في الطبيعة، وبرزوا: في الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والفلك، والطب، والهندسة، وغيرها، وفجروا الذرة، وغاصوا في أسرار الخلايا والجينات، ودرسوا خبايا جسم الإنسان وخفاياه، ووسعوا نطاق العلوم الإنسانية والاجتماعية، وأحدثوا اكتشافات واختراعات مذهلة بهرت العقول، وغيَّرت مجرى حياة البشر في جميع الميادين، لكن نتج عن هذا التفوق العلمي مشكلتان أساسيتان:

الأولى : أدى الانفصام بين العلم والأخلاق إلى استخدام هذا العلم فيما يُهلِك الإنسان والبشرية والحياة؛ كالأسلحة الفتاكة، والتصرف الجنوني في الخلايا والجينات لتغيير خلق الله، فنتج عن ذلك أمراض غريبة: كجنون البقر، وأنفلونزا الطيور، وأنفلونزا الخنازير؛ تنذر بالمزيد مما يهدد النوع البشري والكون كله.

الثانية : بلغ الغرب حدًّا متقدمًا من الغرور والغطرسة، صرح معه أن الإنسان قد : "قتل الله! وحل محله"؛ أي: أصبح قادرًا على صنع المعجزات بنفسه، فلم يعد في حاجة إلى فكرة: الإله، والدين، والعقائد السماوية[43].

43/ مقتبس من مقال : العلم بين الإيمان والغرور- للأستاذ عبدالعزيزكحيل – شبكة الألوكة الثقافية – بتصرف يسير.

قلت : وهذا النوع من البشر الذي تكبر في الأرض واستعلا وتجبر قد ظهر عجزه وتبين ضعفه أمام فيروس كورونا وهو لا يُرى بالعين المجردة .. أليس في هذا تذكير للبشرية بما كان من أمر قارون وفرعون وهامان وأمثالهم من المستكبرين الذين اهلكهم الله تعالى وجعلهم عبرة للمعتبرين و آية للمتفكرين .

إذن لا بد للإنسان من أن يعرف وزنه الحقيقي ويتواضع لله تعالى ولخلقه ، قال تعالى (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) لقمان(18) . وقال تعالى(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) الإسراء (37). (وسيأتي الحديث عن التواضع في الأدب الرابع إن شاء الله تعالى) .

*** **** ***

الأدب الثاني : أن يخلص الدارس في طلبه للعلم وحضوره للدرس [44]:

وهنا عدة أمور مهمة بها يحقق الدارس إخلاصه لله تعالى وبها يعرف درجة الإخلاص في قلبه :

أولاً : لا بد من معرفة حقيقة الإخلاص : بعض الناس يسمع بالإخلاص ، فيظن أنَّ الإخلاص أن يقول : نويت أتعلم لله ، أو مثل ذلك ، وما مثله إلا كمثل رجل جائع ، وأمامه طعام ، وهو يقول : نويت أن آكل . فهل بهذا سيشبع ؟!! أو مثل رجل عطشان وأمامه الماء فقال : نويت أن أرتوي ، فهل بهذا سيجد الارتواء ؟!! لا والله ، بل الإخلاص شيء آخر ،وقد نوه الله تعالى على أهميته في الكتاب في كثير من الآيات :

قال تعالى : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ).

وَقَالَ تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ).

وَقَالَ تعالى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ).

44/ للعلماء كلام كثير في كتبهم حول الإخلاص فمن أراد المزيد فعليه مراجعة رياض الصالحين للنووي ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين - لابن القيم ،وإحياء علوم الدين للغزالي ، وغيرها وهناك مقال بعنوان :مطالب العلم (3) إخلاص النية في طلب العلم - حسام الدين سليم الكيلاني – موقع صيد الفوائد (ومنه اقتبست فقرات هذا الأدب) .

وَقَالَ تعالى لَهُ: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ).

كما وردت ببيانه أحاديث كثيرة منها :حديث عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) متفق عليه .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : في بيان حقيقة الإخلاص [45] :

وَقَدْ تَنَوَّعَتْ عِبَارَتُهُمْ فِي الْإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ الْأَقْوَالِ فِي بَيَانِ الْمَقْصُودِ مِنْهُمَا، وَالْقَصْدُ وَاحِدٌ.

فَقِيلَ: هُوَ إِفْرَادُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ بِالْقَصْدِ فِي الطَّاعَةِ.

وَقِيلَ: تَصْفِيَةُ الْفِعْلِ عَنْ مُلَاحَظَةِ الْمَخْلُوقِينَ.

وَمِنْ كَلَامِ الْفُضَيْلِ رحمه الله تعالى : تَرْكُ الْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ: رِيَاءٌ. وَالْعَمَلُ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ: شِرْكٌ. وَالْإِخْلَاصُ: أَنْ يُعَافِيَكَ اللَّهُ مِنْهُمَا.

قَالَ الْجُنَيْدُ رحمه الله تعالى : الْإِخْلَاصُ سِرٌّ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ. لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ فَيَكْتُبُهُ، وَلَا شَيْطَانٌ فَيُفْسِدُهُ. وَلَا هَوًى فَيُمِيلُهُ.

ثانياً : كيف أخلص ؟ قيل لسهل التستري رحمه الله : أي شيء أشد على النفس ؟!! قال : الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب،فالنفس تحب الظهور والمدح والرياسة ، وتميل إلى البطالة والكسل ، وزينت لها الشهوات ،ولذلك قيل : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال .

وقال بعضهم : إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز.

وقال بعضهم لنفسه : اخلصي تتخلَّصي .وقال : طوبى لمن صحت له خطوة لم يرد بها إلا وجه الله .

كان سفيان الثوري رحمه الله يقول : قالت لي والدتي : يا بُني لا تتعلم العلم إلا إذا نويت العمل به ، وإلا فهو وبال عليك يوم القيامة .

وقد قيل لذي النون المصري رحمه الله تعالى : متى يعلم العبد أنه من المخلِصين ؟ فقال: إذا بذل المجهود في الطاعة ، وأحب سقوط المنزلة عند الناس .

45/ مدارج السالكين - منزلة الإخلاص .

وقيل ليحيى بن معاذ .رحمه الله تعالى.: متى يكون العبد مخلصاً ؟ فقال : إذا صار خلقه كخلق الرضيع ، لا يبالي من مدحه أو ذمه .

ثالثاً : ومن الإخلاص أن تنوي بطلب العلم [46]:

- أن ترفع الجهلَ عن نفسك.
- أن تعبدَ الله على بصيرة.
- أن تتقرَّب إلى الله بطلب العلم؛ لأن طلبَه جهاد.
- أن تتعبَّد لله بطلب العلم؛ لأن مدارسته عبادة.
- أن تزداد به خشية، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: 28].
- أن ترتفع به عند الله درجات، ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11].

رابعاً : أن يحذر الدارس الرياء :

قال عبد الله الأنطاكي رحمه الله : من طلب الإخلاص في أعماله الظاهرة ، وهو يلاحظ الخلق بقلبه ، فقد رام المحال ؛ لأنَّ الإخلاص ماء القلب الذي به حياته ، والرياء يميته .

فلا بد إذن للنجاة في الآخرة وللانتفاع بالعلم في الدنيا والنفع به من الإخلاص ، رزقنا الله و إياكم إياه .

خامساً :أن يحذر الدارس النفاق : احذر أن تكون منافقاً ، و أنت لا تشعر، مرائياً من حيث لا تعلم ، احذر الشهوة الخفية ،فإنَّ كثيراً من طلاب العلم سقطوا لَمَّا غفلوا عن تلك الشهوات الخفية ، وهي عند الله من الكبائر،وهذه الشهوات الخفية تهجم على قلب المتعلم صغيراً كان أو كبيراً ، مشهوراً كان أو مغموراً ، فتفسد عمله ، وتخيِّب قصده ، عافانا الله و إياكم منها. .

إنها شهوة الترفُّع وحب الظهور، شهوة كسب الاحترام والتوقير، شهوة طلب الشهرة وأن يشار إليه بالبنان،إنها مصيدة اتخاذ العلم وسيلة لنيل غرض من أغراض الدنيا ؛لبناء الأمجاد

46/ مقتبس من مقال :آداب طالب العلم -الشيخ وحيد عبدالسلام بالي - شبكة الألوكة .

الشخصية والعلو على الناس،والاستعظام عليهم واحتقار الآخرين وازدرائهم ، وعيبهم والتشنيع عليهم شهوة حب التصدر، وأن ينشغل الناس به، وينقادوا إليه .

ثم تكون النتيجة : الكبر والغرور والعجب والأنانية ، وحب الذات وعبادة النفس ، والانتصار لها ، والغضب لها ،وعبادة الهوى .

وهذه - والله - بليات نعوذ بالله منها ، تسقط بسببها سماء إيمانك على أرضه ، فلا تقوم للقلب قائمة ، وإنَّ القلب ليقشعر من مجرد تعديد هذه الأمراض ، عافانا الله وإياكم منها .

*** **** ***

سادساً : الزهد في الثناء والمدح :

ويسهله عليك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ، ويضر ذمه ويشين ، إلا الله وحده . وذلك لما ورد في الحديث أن رجلا قال (يا رسولَ اللَّهِ إنَّ حمدي زينٌ وإنَّ ذمِّي شينٌ)، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ: (ذاكَ اللَّهُ عزَّوجلَّ) [47].

فازهد في مدح مَنْ لا يزينك مدحه ، وفي ذم مَنْ لا يشينك ذمه ، وارغب في مدح مَنْ كل الزين في مدحه، وكل الشين في ذمه ، ولن يُقدَر على ذلك إلا بالصبر واليقين ، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البر في غير مركب.

قال ابن القيم رحمه الله (القرآن مملوء من التزهيد في الدنيا ، والإخبار بخستها ، وقلتها و انقطاعها ، وسرعة فنائها . والترغيب في الآخرة ، والإخبار بشرفها ودوامها . فإذا أراد الله بعبد خيرا أقام في قلبه شاهدا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة . ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار).

وقال أيضاً : (والذي أجمع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا ، وأخذه في منازل الآخرة . وعلى هذا صنَّف المتقدمون كتب الزهد . كالزهد لعبد الله بن المبارك ، وللإمام أحمد ، ولوكيع ، ولهناد بن السري ، ولغيرهم) .

*** **** ***

47/ أخرجه الترمذي (3267) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11515)، وأحمد (15991) وصححه الألباني في صحيح الترمذي حديث رقم (3267) . (الدرر السنية) .

الأدب الثالث : استحضار نية الاستنارة بعلم المعلِّم وليس مجادلته أو إظهار ضعفه العلمي :

يجب على الطالب عند حضوره للدرس وفي أثناء استماعه أن يراعي تلك الآداب الرائعة الرائقة التي خطها قلم ابن حزم رحمه الله تعالى حيث يقول [48] :

إذا حضرتَ مجلسَ علمٍ، فلا يكن حضورك إلا حضورَ مستزيدٍ علمًا وأجرًا، لا حضور مستغنٍ بما عندك، طالبٍ عثرةً تشنعها، أو غريبة تشيعها، فهذه أفعال الأراذل الذين لا يفلحون في العلم أبدًا.

فإذا حضرتَها - يعني مجالس العلم - **على هذه النية، فقد حصَّلت خيرًا على كل حال، فإن لم تحضرها على هذه النية، فجلوسك في منزلك أروح لبدنك، وأكرم لخُلُقِك، وأسلمُ لدينك.**

فإذا حضرتها كما ذكرنا، فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها؛ وهي:

الوجه الأول : أن تسكت سكوت الجهال، فتحصل على أجر النية في المجالسة لأهل العلم والصلاح، وعلى الثناء عليك بقلة القول ، لأن الناس بطبيعتهم يكرهون الثرثارين ، وعلى كرم المجالسة ومودة مَن تجالس. فإن لم تفعل ذلك يأتي :

الوجه الثاني : فاسأل سؤال المتعلم، فتحصل على هذه الأربع المحاسن - يعني المذكورة في الوجه الأول - **وعلى خامسة؛ وهي استزادة العلم.**

وصفة سؤال المتعلم هو أن تسأل عما لا تدري لا عما تدري، فإن السؤال عما تدريه... شغل لكلامك، وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لك ولا لغيرك، وربما أدى إلى اكتساب العداوات [49].

فإن أجابك الذي سألتَ بما فيه كفاية لك، فاقطع الكلام، فإن لم يُجبك بما فيه كفاية، أو أجابك بما لم تفهم، فقل له: لم أفهم، واستزده، فإن لم يزدك بيانًا وسكت، أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد، فأمسك عنه، وإلا حصلت على الشر والعداوة ولم تحصل على ما تريده من الزيادة.

والوجه الثالث : أن تراجع مراجعة العالم، وصفة ذلك أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضًا بيِّنًا، فإن لم يكن ذلك عندك، ولم يكن عندك إلا تكرار قولك، أو المعارضة بما يراه خصمك معارضة فأمسك؛ لأنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر زائد، ولا على تعليم، ولا على تعلُّم، بل على الغيظ

48/ مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل – لابن حزم – (نقلا عن مقال : من آداب مجالس العلم - للكاتب : فهد ابن عبدالعزيز عبدالله الشويرخ – شبكة الألوكة الشرعية) .

49/ قال العلماء : يجوز للطالب أن يسأل عن أمور هو يعلمها إذا كان يعلم أن في الجالسين من يجهلها بنية تعليمهم على لسان الشيخ فيحوز فضيلة تنبيه الشيخ على تلك الأمور ونفع إخوانه المسلمين .

لك ولخصمك، وإياك وسؤال المتعنت ومراجعة المكابِر الذي يطلب الغلَبَة بغير علم، فهما خُلُقا سوءٍ، ودليلان على قلة الدين، وكثرة الفضول.

*** **** ***

الأدب الرابع : التواضع مع الشيخ خاصة وبقية الناس عامة :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما قُبِض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا شابٌّ قلت لشابٍّ من الأنصار: يا فلان هلمَّ فلنسأل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولنتعلم منهم فإنهم كثير، قال العجب لك يا ابن عباس؛ أترى الناس يحتاجون إليك وفي الأرض مَن ترى من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم؟ قال: فتركت ذلك وأقبلت على المسألة وتتبُّع أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن كنت لآتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأجده قائلاً فأتوسَّد ردائي على بابه تُسفي الريح على وجهي حتى يخرج، فإذا خرج قال: يا ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما لك؟ فأقول: بلغني حديث عنك أنك تحدثه عن رسول الله فأحببت أن أسمعه منك، قال: فيقول فهلاَّ بعثت إليَّ حتى آتيَك، فأقول: أنا أحقُّ أن آتيك، فكان الرجل بعد ذلك يراني وقد ذهب أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واحتاج الناس إليَّ فيقول: كنت أعقل مني.

وروى الشعبي رحمه الله قال: صلى زيد بن ثابت رضي الله عنهعلى جنازة، ثم قربت له بغلة ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ برِكَابه فقال له زيد: خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله، فقال ابن عباس: هكذا يفعل بالعلماء والكبراء.

لما كان للتواضع أثره المهم في سيرة الدارس ومسيرته الدراسية كان لا بد من ذكر أهم ما يجب أن يعلم عنه في نقاط سريعة :

أولاً : مفهوم التواضع : لقد ذكر ابن القيم رحمه الله عددا من أقوال العلماء في الكشف عن معنى التواضع اقتصر على ذكر بعضها [50]:

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع ؟ فقال : يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله .

قلت : وهذا يعنى عدم الالتفات إلى شكل القائل أو لونه أو قبيلته أو مكانته الاجتماعية ، مادام قد نطق بالحق فلا بد من قبوله منه .

50/ مدارج السالكين - منزلة التواضع .

وقال الجنيد بن محمد رحمه الله : هو خفض الجناح ، ولين الجانب .

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله : هو أن لا يرى لنفسه مقاما ولا حالا . ولا يرى في الخلق شرا منه .

قال ابن عطاء الله : هو قبول الحق ممن كان ، والعز في التواضع فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار.

- وقيل التواضع ألا ترى لنفسك قيمة ، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب .

قلت : ولعل هذا التعريف هو من أوضح ما قيل في التواضع لا من حيث المعنى فقط بل من حيث الكشف عن حقيقة النفس التي ترى أن النزول عن منزلة معينة يحصل به التواضع فها هنا نقول لصاحب تلك النفس قد جعلت لها قيمة فلست من المتواضعين.

*** **** ***

ثانياً : للتواضع أربعة أقسام [51] : تواضعٌ مع الله تعالى ، ومع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع النفس ، ومع الناس والذي يهمنا في هذا المقام هو الأخير ،وهو الذي ينصرف إليه لفظ التواضع إذا أُطْلِقَ .

ونريد بالتواضع مع الناس : ألا تفضِّل نفسك على أحد من المسلمين ، وألا ترى نفسك أرفع من أحد منهم مهما كان قدره، وهذا يتحقق بثلاثة أشياء :

- أن ترضى بأخوة المسلمين ، لأن الله تعالى رضي بهم عبيدا له و أنت عبد مثلهم ، فكيف لا ترضى بأخوة من رضيهم الله عبيدا له ، فمن الكبر أن تتكبر على عبد مثلك ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ . سورة الحجرات الآية (10).

- أن تقبل الحق ممن جاء به إليك عدوا كان أو صديقا ، وقد قال الله تعالى ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ سورة المائدة الآية (8) .

51/ ذكرتها بالتفصيل في كتابي مَنْحُ الكَرِيمِ المَنَّانِ في شَرْحِ صَفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ – الصفة الأولى التواضع – (وهو منشور في موقع صيد الفوائد ولله الحمد والمنة) .

- قبول اعتذار من اعتذر إليك من الناس لإساءة وقعت منه تجاهك ، وقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم اعتذار المنافقين عندما تخلفوا عن تبوك فضلا عن غيرهم ، وعدم قبول الأعذار مما يؤدى إلى الكبر .

ثالثاً : لكي ينزع الدارس عن نفسه الكبر ويزرع التواضع فعليه أن يتذكر :

- أن الله توعد المتكبرين بالنار وأخبر أنها دارهم فقال تعالى : (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) [الزمر:60]، ويقول عليه الصلاة والسلام: (ألا أخبِركم بأهلِ النّار؟ كلّ عُتُلٍّ جوّاظٍ مستكبرٍ) متفق عليه.
- وأنَّ مَن حمَل في قلبِه ولو شيئًا يسيرًا مِن الكبر حرُم عليه دخول الجنة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنةَ من في قلبه مثقالُ ذرّة مِن كبر) رواه البخاري .
- ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: (حتجّت الجنّة والنّار، فقالت النّارُ: فيّ الجبّارون والمتكبِّرون، وقالت الجنّة: فيّ ضعفاء النّاس ومساكينهم) رواه مسلم
- وأنَّ منشأ الكبر مِن جهلِ العبدِ بربّه وجهله بنفسه، فإنّه لو عرف ربَّه بصفاتِ الكمال ونعوت الجلال وعرف نفسَه بالنقائص والآفاتِ لم يستكبر على أحد ولم يأنف من أحد.

وعليه نقول :

من الواجب على المسلم أن ينزع عنه رداءَ الكبر والتعاظم، فإنهما ليسا لك، بل هما للخالق، والبَس رداءَ الانكسار والتواضع، فما دخل قلبَ امرئٍ شيءٌ من الكبر قطّ إلا نقَص من عقلِه بقدر ما دخل من ذلك أو أكثر.

يقول سفيان بن عيينه رحمه الله : مَن كانت معصيته في الكبرِ فاخشَ عليه، فإبليس عصى متكبِّرًا فلُعِن.

والكبر المباين للإيمان لا يدخُل صاحبه الجنّة، كما في قوله تعالى :(إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ) [غافر:60].

ولا تفخر على أحدٍ فدنياك زائلة، يقول عليه الصلاة والسلام: (حقٌّ على الله أن لا يرتفِع شيءٌ من الدّنيا إلا وضعه) رواه البخاري .

و إنما يقع العذاب على من تغلغَل الكبر في قلبه، وتكون خفّته وشدّته - العذاب - بحسَب خفّته - الكبر - وشدّته، ومن فتحه على نفسه فتح عليه أبوابًا من الشرور عديدة، ومن أغلقها على نفسه فتِحَت له بإذن الله أبوابٌ من الخيرات واسعة .

الأدب الخامس : سلامة الصدر تجاه الشيخ خاصة والناس عامة[52]:

سلامة الصدر علامة فضل وتشريف وتؤدي إلى ارتياح النفس وحسن تعامل مع الناس، روى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال: (كلُّ مخمومِ القلبِ ، صدوقُ اللِّسانِ ، قالوا : صدوقُ اللِّسانِ نعرِفُه فما مخمومُ القلبِ ؟ قال : (التَّقيُّ النَّقيُّ ، لا إثمَ فيه ، ولا بغْيَ ، ، ولا غِلَّ ، ولا حسَدَ)[53] .

وصاحب هذا القلب هو الذي ينجو يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

قال سعيد بن المسيب رحمه الله: القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن .

وسُئل ابن سيرين رحمه الله، ما القلب السليم؟ قال: "الناصح لله عزَّ وجلَّ في خلقه"، أي: لا غش فيه ولا حسد ولا غل.

ولقد راعى سلفنا الصالح هذا الأمر واهتموا به أشد الاهتمام ومما ورد من أقوالهم:

- قال سفيان بن دينار: قلت لأبي بشير - وكان من أصحاب علي رضي الله عنه -: أخبرني عن أعمال مَنْ كان قبلنا، فقال: كانوا يعملون يسيرًا ويؤجرون كثيرًا، قلت: ولِمَ ذلك؟ قال: لسلامة صدورهم.
- وعن زيد بن أسلم قال: دُخل على أبي دجانة رضي الله عنه وهو مريض، وكان وجهه يتهلل، فقيل له : ما لوجهك يتهلل؟ قال: ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنين؛ أما أحدهما: فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وأما الآخر: فكان قلبي سليمًا للمسلمين".
- وقال القاسم الجوعي رحمه الله: "أصل الدين الورع، و أفضل العبادة مكابدة الليل، و أقصر طريق للجنة سلامة الصدر" .
- و ابن السماك الواعظ: وقع بينه وبين أحد إخوانه شيء، فقال له أخوه: الميعاد بيني وبينك غدًا نتعاتب، فقال له ابن السماك: بل بيني وبينك غدًا نتغافر.

52/ مقتبس من مقال : سلامة الصدر.. من خصال البر – عقل العقل – موقع طريق الإسلام ، ومقال أقوال السلف عن سلامة الصدر-د. شريف فوزي سلطان – موقع شبكة الألوكة ،وينظر مقال : سلامة الصدر– عبد الملك القاسم - موقع صيد الفوائد .

53/ رواه ابن ماجه: 4216، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه: 3397 وقال أيضا في السلسلة الصحيحة : إسناده جيد ، رجاله ثقات .

• وكتب أحد الشعراء إلى إخوانه مثل هذا، فقال:

من اليوم تعارفنا　　ونطوي ما جرى منا

فلا كان ولا صارَ　　ولا قلتم ولا قلنا

وإن كان ولا بدَّ　　من العتبى فبالحسنى

• قال الملك العادل للعز بن عبدالسلام يومًا: اجعلني في حل، فأجابه العز قائلًا: أما محاللتك فإني في كل ليلة أحالل الخلق، و أبيت وليس لي عند أحد مظلمة، وأرى أن يكون أجري على الله، ولا يكون على الناس".

ولسلامة الصدر أسباب ، منها :

- الابتعاد عن سوء الظن، فبئس مطية الرجل زعموا، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: 12]. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تنابزوا، وكونوا عباد الله إخوانا» رواه الشيخان، فانظر كيف بدأ بالنهي عن سوء الظن؛ لأنه مصدر الشرور كلها المذكورة في الحديث، فطهّر قلبك من سوء الظن ما وجدت إلى ذلك سبيلا.
- أن تلهج بدعاء الله تعالى : أن يجعل قلبك سليماً من الغل والضغينة والحقد والحسد قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحشر:10].
- أن تعلم يقينًا أنَّ مِن أعظم ما يستلذ به الشيطان ويسعى إليه بث الضغائن والأحقاد بين المسلمين، ففي الحديث المرفوع: (إن الشيطان قد أَيِسَ أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم)؛ رواه مسلم.
- أن تجتهد في تحقيق الإخلاص لله، فمن أخلص لله سَلِمَ قلبه، وخلا من كل مكروه؛ قال صلى الله عليه وسلم: (ثلاث لا يُغِلُّ عليهنَّ قلب امرئ مسلم - أي: لا يحمل في قلبه غلاً ولا حسدًا - إخلاص العمل لله، ومناصحة المسلمين، ولزوم جماعتهم)؛ رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصحَّحه الألباني.
- إذا أردت أن يَسلَمَ صدرُك على مَن بينك وبينه شحناء، فأكثِر من الدعاء له، واذكر محاسنه بين الناس، فبذلك تكون قد ألجمت نفسك، ورددت كيد شيطانك.

و أقول بناءً على ما سبق :

لا بد أن يكون طالب العلم أنقى الناس صدرا تجاه الآخرين لأن الذي يسئ الظن بالآخرين ويحمل الحقد تجاههم يكون مرتكبا لإثم كبير فيحال بينه وبين الفتح عليه في الفهم والعلم ،**قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى** : "مهما رأيت إنسانا يسيء الظن بالناس طالبا للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو، فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق".

*** **** ***

المبحث الرابع

روحانيات حضور حِلَقِ الذِّكْر

ما سأذكره هنا من روحانيات هو عبارة عن بركات ونفحات مجالسة العلماء والصالحين تنعكس على المُجالِس لهم فيجد بسببها أنه قد حدث له كثير من التغيُّر في حياته ، سواء أكان ذلك في حياته التعبدية أو الأخلاقية أو الاقتصادية أو الاجتماعية بل وفي نظرته لكثير مما يدور حوله في هذه الحياة .

إن الذي يجالس العلماء ينبغي أن يختلف اختلافا كثيرا وكبيرا عن الآخرين الذين لم يحظوا بمثل ما حظي به هو [54] (بالطبع أنا أتكلم عمن حقق الآداب السابقة).

فمن روحانيات المُجالس للعلماء في حِلَقِ الذِّكْر: أن تصغر الدنيا في عينه وان يستديم ذكر الآخرة في قلبه ... فليس هو ذاك الشخص الذي ينافس أهل الدنيا على دنياهم ، لأن كلام أهل العلم في علو الهمة يقتصر على طالب الآخرة لا طالب الدنيا، بمعنى أنك إذا وجدت إنسانا حاصل على أعلى الشهادات في علم دنيوي بحت ليس فيه خدمة لدينه، وليس فيه أي نوع من القربة لله عز وجل، فلا يسمى هذا عالي الهمة، هذا نشيط أو مجتهد أو أي لفظ آخر.

فإذا ارتقت همتك وتعلقت بالله عز وجل وبالجنة .. علوت وارتقيت وصارت الدنيا عندك سفساف، فتعلو عنها وعن شهواتها، قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها) [55].

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بِالسُّوقِ وَالنَّاسُ كنفتيه، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكّ مَيّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ، فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: (أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟) فَقالوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟! ثُمَّ قَالَ: (أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟) قَالُوا: وَاللَّه لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا أنَّه أَسَكَ - ليس له أُذنانِ - فكَيْفَ وَهو مَيِّتٌ؟! فقال: (فَوَاللَّه للدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ) رواه مسلم.

انظر لهذا التمثيل، هكذا الدنيا ، خبيثة، منتنة، لا تريد أن تنظر لها، حقيرة، فلا ينبغي أن تنشغل بها إذا كنت عالي الهمة؟ .

54/ غالب فقرات هذا المبحث منقولة من كتابي : تَأَمُّلاتٌ عَقْلِيَّةٌ وَنَفَحَاتٌ تَعَبُّدِيَّةٌ فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى الْعَلِـيَّةِ . (منشور موقع صيد الفوائد ولله الحمد) .

55/ حسَّنه السيوطي في الجامع الصغير وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير .

ذلك لعلمه أنه سوف يُردُّ إلى الحق في الدار الحق لقوله تعالى: (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) [الأنعام:62]. وقال تعالى : (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) [يونس:30].

فيعمل لذلك اليوم ألف حساب وإلا كان جلوسه في حلقات العلم وبالا عليه وزيادة في إقامة الحجة عليه .

*** **** ***

ومن روحانيات المُجالس للعلماء في حِلَقِ الذِّكْر: أنَّ حبَّ الله تعالى يكبر في قلبه يوما بعد يوما بسبب ما يسمعه من تفسير لآيات القرآن التي تحدث الله تبارك وتعالى فيها عن صفات جماله ورحمته ورأفته بخلقه وطلبه منهم التوبة والرجوع إليه والاستغفار مما جنته أيديهم ليتوب عليهم فيوافونه في الآخرة فيجدون رحمته الواسعة فيكرمهم بدخول جنته حيث أحسنوا ظنهم به تبارك وتعالى.

قال تعالى :(مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) سورة العنكبوت (5-6) .

قال السعدي رحمه الله تعالى : يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقائه، وسر نحوه، مستصحبا الرجاء، مؤملا الوصول إليه، ولكن، ما كل من يَدَّعِي يُعْطَى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقا في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذبا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح.

وقال جلَّ وعلا:(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) [الأعراف:156]. فرحمة الله عزَّوجلَّ عامة واسعة،وهي للمؤمنين في الدارين،ثم قال تبارك وتعالى: (فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) [الأعراف:156].

وقد فتح الله تعالى: أبواب رحمته للتائبين، فقال تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [الزمر:53].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طَمِع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد)** متفق عليه.

ومن روحانيات المُجالس للعلماء في حِلَقِ الذِّكْر: أن الخوف من الله تعالى العظيم الجليل يكبر في قلبه يوماً بعد يومٍ بسبب ما يسمعه من تفسير لآيات القرآن التي تحدث الله فيها عن جلاله وكبريائه وعظمته وبهائه وهيبته واستغنائه عن جميع خليقته .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : وكل شئ موصوف فصفته بحسبه ، فعِظَمُ الذات شئ ، وعظم صفاتها شئ ، وعظم القول شئ ، وعظم الفعل شئ ، والرب تعالى له العظمة بكل اعتبار، وكل وجه بذاته .

وقال رحمه الله في القصيدة النونية :

وهو العظيم بكل معنى يوجب التـ عظيم لا يحصيه من إنسان

ومن هنا قال العلماء : إذا كان العبد يرى الله بعين العظم والإكبار يرى نفسه بعين الذل والانكساروالافتقار: لذلك كان قول (**سبحان ربي العظيم**) مناسبا جدًا للركوع، **لأن سبحان** فيها تنزيه عن النقص والإقرار لنفسي به، **وربي** فيها معنى المحبة، ثم **العظيم** فيها الإعظام والإكبار، فيتحقق في سبحان ربي العظيم معاني العبودية: **(ذل تام، وحب تام)** على جهة التعظيم والإكبار والإجلال.

*** **** ***

ومن روحانيات المُجالس للعلماء في حِلَقِ الذِّكْر: أن يعلم أنَّ من مقتضيات تعظيمه سبحانه أن يطيع نبيَّه ورسوله صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى قال: **(مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)** [النساء:80].

قال السعدي رحمه الله تعالى : وفي هذا دليل على عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الله أمر بطاعته مطلقا، فلولا أنه معصوم في كل ما يُبَلِّغ عن الله لم يأمر بطاعته مطلقا، ويمدح على ذلك. وهذا من الحقوق المشتركة فإن **الحقوق ثلاثة: حق لله** تعالى لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك. **وحق مختص بالرسول** صلى الله عليه وسلم ، وهو التعزير والتوقير والنصرة. **وحق مشترك**، وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتهما وطاعتهما، كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: **(لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) فمَنْ أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير ما رتب على طاعة الله ، (وَمَنْ تَوَلَّى) عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا.**

قلت : مما يستفاد من قوله تعالى: (لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ)الفتح(9) أن تعظموه وتعطوه قدره - صلى الله عليه وسلم- فلا ينبغي بأي حال ابتداء أن يُنادى النبي صلى الله عليه وسلم كما يُنادى غيره.

ولا ينبغي بحال أن تكون مكانة النبي صلى الله عليه وسلم توازى في قلبك مكانة أي أحد آخر ، لأن الإيمان يقتضي أن يكون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أحب إليك مما سواهما، وهذا يحتاج إلى معايشته صلى الله عليه وسلم من خلال سيرته. فمن يتعايش معه ومع صفاته فسوف يوقره ويعظمه ويجله.

***   ****   ***

ومن أعظم وأهم روحانيات المُجالس للعلماء في حِلَقِ الذِّكْر: أنه يمتازعن غيره بتحري الكسب الحلال له ولعياله لأنه بالأكل الحلال يتيسر له فعل الطاعات واجتناب المنكرات وبالأكل الحلال يخشع لله تعالى وتحسن معاملته مع خلق تعالى وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّ الحلال بيِّنٌ، وإنَّ الحرام بيِّنٌ، وبينهما أمور مُشتبهات لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس، فمَن اتَّقى الشُّبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَن وقع في الشُّبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يُوشك أن يرتع فيه، ألا وإنَّ لكل ملكٍ حمى، ألا وإنَّ حمى الله محارمه، ألا وإنَّ في الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسدُ كله، وإذا فسدت فسد الجسدُ كله، ألا وهي القلب) رواه البخاري ومسلم.

قال العلماء : في هذا الحديث إشارة إلى أن طيب المطعم من أعظم أسباب تقوية القلب وزيادة الإيمان وقوته ، وأن من أعظم مهلكات القلب ومفسدات أحوال الإنسان أكل الحرام، لذا وجب على الإنسان التحري للحلال دوما.

وروي أن سفيان الثوري رحمه الله تعالى : كان يتحرى الحلال من الرزق حتى عانى أولاده الفقر، فجاءه رجل بصُرَّة مال ورجاه أن يقبلها منه، فقبلها سفيان وبعد قليل ردها إليه خشية الشبهة، فقال له أحد أولاده: "يا أبت أليس لك أولاد بحاجة لهذا المال؟: فقال سفيان : (**تريد أن تأكل وتتنعم ويُسأل أبوك يوم القيامة؟!**)، فهكذا شأن سلفنا الصالح كانوا يتورعون في مسألة أكل الحلال .

***   ****   ***

ومن روحانيات المُجالس للعلماء في حِلَقِ الذِّكْر: استشعاره أن الله سبحانه رقيب على عباده راصد لأعمالهم وكسبهم، عليم بالخواطر التي تدب في قلوبهم، يرى كل حركة أو سكنة في أبدانهم، ووكل ملائكته بكتابة أعمالهم وإحصاء حسناتهم وسيئاتهم، قال تعالى: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَاماً كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) [الانفطار:10- 12]. فالملائكة تسجل أفعال الجنان والأبدان، وقال تعالى عن تسجيلهم لقول القلب وقول اللسان: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [ق: 16-18].

ويقول ابن القيم رحمه الله في النونية :

وَهْوَ الرَّقِيبُ عَلَى الخَوَاطِرِ واللَّوَا حِظِ كَيْفَ بالأَفْعَالِ بالأَرْكَانِ

وبناءً عليه فقد علم المُجالس للعلماء : أن مراقبة الله سبحانه تعالى تقتضي أن يحترس المرء من خواطره لأنها نقطة البداية لأي عمل.. وذلك بألا تسبح مع خاطرك .. فلا تطلق لخيالك العنان وتدع نفسك تشرُد في كل ما تشتهي وتتمنى.. وكلما راودتك تلك الخواطر وأحلام اليقظة، تحرَّك واشغل نفسك بأي عمل آخر: حتى لا تسبح بخيالك بعيدًا عن هدفك.

ومن راقب الله في خواطره، عصمَّه الله في حركات جوارحه : فلو تخيلت أنك محاط بكاميرات مراقبة في كل مكان، تحصي عليك حركاتك وسكناتك، في بيتك، وفي حيك، وفي سوقك، وفي عملك، وفي سفرك.. كيف ستكون أفعالك؟ وكيف ستكون أقوالك؟ وكيف ستكون تصرفاتك؟ هذا والمراقِب بشر من البشر، فكيف والمراقب الله الذي خلقك، والذي سواك فعدلك؟ فيا هولها من مراقبة ما أصعبها، مراقبةِ مَنْ لا تنطلي عليه حيل المتحايلين، ولا خُدَعَ المتلاعبين، ولا سحر الساحرين. (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) [الزخرف: 80].

ولئن تصرف بعض الناس بخداع إخوانهم في الدنيا، فلبَّسوا عليهم بحيلهم ومكرهم، فإنهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد مُفتضَحون، وبغَدَراتهم وفَجَراتهم مكشوفون.

قال تعالى :(قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) [ق: 27 - 29].

وكيف حجتهم يوم القيامة، وكتابهم ينطق عليهم بسوء أعمالهم، وقبح ما جنته أيديهم؟ قال - تعالى : (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ

عَتِيدٌ) [ق: 17، 18]. وقال تعالى : (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[الجاثية: 29].

*** **** ***

ومن روحانيات المُجالس للعلماء في حِلَقِ الذِّكْر: أن يعلم ما له من الأجر الكبير في حسن الخلق فيرحم الجميع ويخص الصغير بر أفته والكبير بتوقيره واحترامه - دون مداهنة في باطل أو مجاملة في ترك حق - فلا يزال محبوبا بين الناس الكل يشتهي لقاءه ومجالسته .

فلقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم أفضل أصحابه من بعده بهذه الصفة، فقال: (أرحم أمتي بأمتي: أبو بكر) رواه الترمذي ؛ فكأنَّ مَنْ يتصف بالرحمة ينال درجة الصديقية، وهي أعلى الدرجات عند الله تعالى.

وبيَّن صلى الله عليه وسلم أن الرحمة تَنال عباد الله الرحماء فقال: (فإنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه، والشقي هو الذي نزعت من قلبه الرحمة، وقال: (من لا يرحم الناس، لا يرحمه الله) متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أتقبّلون الصبيان؟ فما نُقبّلهم! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَوَأَملِك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة) متفق عليه .

قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله : ومن منطلق إيمان العبد بالرَّحِيم أَن لَا يدع فاقة لمحتاج إِلَّا يسدها بِقدر طاقته وَلَا يتْرك فَقيرا فِي جواره وبلده إِلَّا وَيقوم بتعهده وَدفع فقره إِمَّا بِمَالِه أَو جاهه أَو السَّعْي فِي حَقه بالشفاعة إِلَى غَيره ؛ فَإِن عجز عَن جَمِيع ذَلِك فيعينه بِالدُّعَاءِ وَإِظْهَار الْحزن بِسَبَب حَاجته رقةً عَلَيْهِ وعطفاً حَتَّى كَأَنَّهُ مشارك لَهُ فِي ضره وَحَاجته.

*** **** ***

المبحث الخامس

أهم الآداب المطلوبة مع أهل العلم في كل عصرومصر

المطلب الأول : اختلال منزلة العلماء لدى بعض الناس في عصرنا.

المطلب الثاني : أهم الآداب المطلوبة مع أهل العلم في كل عصرومصر.

المحور الأول : وصية السلف بأهمية الأدب مع العلماء ونماذج عملية من حياتهم .

المحور الثاني : من مظاهر الأدب مع العلماء تقديراً لعلمهم .

المحور الثالث : من أهم الآداب الاعتذار للعلماء عند وقوعهم في الأخطاء .

المطلب الأول

اختلال منزلة العلماء لدى بعض الناس في عصرنا

لا شك أن مَن جالس أهل العلم بتلك الآداب التي بيَّنّاها لحضور حِلَقِ الذِّكْر واستشعر تلك الروحانيات التي أوضحناها فإنه سيستفيد فائدة عظيمة ألا وهي : أن يلتزم الأدب مع العلماء فيدخل في زمرة الفائزين بما بشر الله به عباده الصالحين المصلحين في كتابه المبين وسنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

لكن قبل بيان وجوب تلك الآداب التي يجب التزامها مع علمائنا الأجلاء - وهم أهل الذِّكْر الذين يحرصون على تعليم الناس أموردينهم - أطرح بين أيديك أخي القارئ الكريم هذا السؤال :

ما هي المنزلة التي تجب أن تكون للعلماء بالدين الحنيف على مختلف تخصصاتهم؟

ستبادرني أخي القارئ الكريم بجواب المستعَجِل : لا شك أن لهؤلاء العلماء منزلة عظيمة في قلب كل مسلم.

أقول لك : لا تعجل .. ونحن لكي نتحقق من هذا الكلام أسألك سؤالا : لو كنتَ في مجلس من المجالس وفيه عدد من **أعيان البلد** وهم : وزير الخارجية .. ووزير الداخلية .. وطبيب استشاري .. ومحام مشهور بحل أعقد القضايا الجنائية .. وأحد العلماء - بالدين -المشاهير الذين لهم باع طويل في العلم وله عدد من المؤلفات في الفقه والتفسير - مثلا - كما أن له باعا طويلا في الدعوة إلى الله تعالى وقد أسلم على يديه عدد من الناس .. وفي المجلس أيضا عدد كبير من عوام الناس .. الآن أجبني بصراحة أي هؤلاء الضيوف أعظم منزلة في صدور العامة ؟ **(والسؤال موجه إليك أنت أيضا دون إحراج).**

أظن أنَّ الجواب معروف وهو: ترتيب الأعيان المذكورين في نفوس الناس كترتيبهم أعلاه إن لم يكن العالم الشرعي أقرب إلى منزلة العوام - إلا من رحم ربك - حتى في صدور بقية الأعيان إلا أن يكون لأحدهم مصلحة عند ذلك العالِم .

***　　　****　　　***

فيا أخي يجب أن نكون صريحين مع أنفسنا ولا نعيش خداعا طال زمانه ولم نفكر حتى مجرد تفكير في تغييره .. وإن أردت الدليل الملموس سل نفسك عن الرواتب المالية التي يتقاضها

الأعيان المذكورون ستجد أقلهم هو العالم بالشرع بل ربما يكون في أصحاب الحرف من يكون في كسبه أفضل حالا من ذلك العالم المشهور [56] .

و أتحفك - أخي الحبيب - بهذين الخبرين للتأمل فيهما :

الخبر الأول : في أحد مواسم الحج جاء أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك رحمه الله إلى الحج هوو اثنان من أبنائه الأمراء، فاحتاجوا إلى إجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بالحج، ولم يجدوا لذلك أفضل من العلامة عطاء بن أبي رباح[57] رحمه الله، فذهبوا إليه وهو يصلي، فانتظروا إلى جواره حتى انتهى من صلاته، فبدءوا يسألونه وهو يجيبهم في وضع الصلاة لا يلتفت إليهم، وهو يقبلون بهذا الوضع لأنهم يحتاجون إلى العلم، وبعد انتهاء الأسئلة انصرفوا، ثم جمع أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك رحمه الله ولديه وقال لهما: "يا بني، لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود [58].

***   ****   ***

الخبر الثاني : كان المأمون قد وكل الفراء يلقن ابنيه النحو، فلما كان يومًا أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفراء يقدمانه له، فتنازعا أيهما يقدمه، فاصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردًا فقدماها، فرفع ذلك الخبر إلى المأمون، فوجه إلى الفراء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال: من أعز الناس؟ قال: ما أعرف أعز من أمير المؤمنين، قال: بل من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين حتى رضي كل واحد أن يقدم له فردًا!! قال: يا أمير المؤمنين، لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفوسهما عن شريعة حرصا عليها. فقال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لومًا وعتبًا وألزمتك ذنبًا، وما وَضَعَ ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما وبيَّن عن جوهرهما، ولقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيرًا عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلمه العلم.

56/ وليس في هذا الكلام تقليل من شأن أولئك الأعيان المذكورين ولا غيرهم ، لكن أحببت أن تكون الصورة واضحة وهي : أن أهل العلم بالإسلام والقرآن وسيرة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم لم يعطوا ما يستحقونه من التبجيل والاحترام لا من الناحية المادية ولا الناحية المعنوية .. و أكبر مصاب تصاب به الأمة هو تأخير الدين وأهله في النفوس وفي و اقع الحياة .

57/ نشأ عطاء بن أبي رباح بمكة، وكان عبدًا أسود لامرأة، وكان أنفه كأنه باقلاة وكان بنو أمية يأمرون في الحاج صائحًا يصيح لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، ويقول عنه الأوزاعي: ما رأيت أحدا أخشع لله من عطاء، ومات بمكة عام 115وعمره 88. صفة الصفوة(2/ 212- 214) .

58/ صفة الصفوة – لابن الجوزي –(212/2) .

وإن جواب المأمون هذا ليعكس نظرة الإسلام والأمة الإسلامية كلها آنذاك إلى العلم والعلماء، وما كانوا عليه رعاة ورعية من العناية والاهتمام والتعظيم والإجلال للعلم وأهله.

فكان العالِم حقًا أعز الناس، وهذه هي الدرجة والمنزلة التي قررها الصالحون والخلفاء عبر التاريخ لعلماء الأمة وحفظوها لهم و أنزلوهم إياها، وقد علموا أنهم مصابيح الدجى التي يُهتدى بها، وهو الأمر الذي أورثهم عزًا ومجدًا وتقدمًا وحضارة ورفعة !!

***   ****   ***

إذن فأين الاحترام والمنزلة لأهل العلم .. لماذا يا أخي دائما الذين هم أدنى معشية في غالب المجتمعات العربية والإسلامية هم المتخصصون في علوم القرآن أو علوم الشريعة أو علوم اللغة العربية وآدابها .. هل تعلم لماذا لأن الدول - بل وبعض المجتمعات - لا تعترف لهم بالفضل ولا بالدور الذي يؤدونه تجاه أوطانهم خاصة وأمتهم عامة .

هذا جانب يدلك على ضعف منزلة العلماء في قلوب عامة المسلمين - إلا من رحم ربك - ولكن ثمة جانب آخر أوضح ألا وهو : لو سألت أي مسلم عن ولده الذي لا يزال في المرحلة الابتدائية .. ما الذي تتمناه من أنواع الدراسة لولدك ؟ أنا أظن أنك لن تجد من يقول لك أتمنى أن يحفظ ولدي القرآن ويدرس دين الله تعالى ويخدم الإسلام - إلا من رحم ربك – لأنه إن درس الشريعة لن يجد ما يأكله وسيكون في حالة يرثى لها .

وجانب أخير يدلك على ضعف منزلة العلماء في قلوب عامة المسلمين وهو أخطر في نظري مما سبق ذكره ألا هو عند حاجة المسلم إلى الاستفتاء ما الذي يحدث ؟

الجواب [59]: أنك ترى بعض الناس حينما تعرض له مشكلة أو نازلة، واحتاج إلى السؤال عنها سأل عنها أقرب شخص له ولو لم يعلم حاله، هل هو من أهل العلم أم لا؟

وبعض الناس يعتمد على المظاهر، فإذا رأى مَنْ سيماه الخير ظنّ أنه من طلاب العلم أو العلماء الذين يستفتى مثلهم! وكل ذلك غلط بيّن، ومخالف لما دلت عليه هذه الآية المحكمة: **(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)** .

***   ****   ***

59/ مقال بعنوان : القاعدة التاسعة والأربعون: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) - د.عمر بن عبد الله المقبل - موقع المسلم.

وكلنا ندري، ماذا يصنع هؤلاء إذا مرض أحدهم؟ أيستوقفون أول مارٍّ عليهم في الشارع فيسألونه أم يذهبون إلى أمهر الأطباء و أكثرهم حذقاً؟

وكلنا ندري ماذا يصنع هؤلاء إذا أصاب سيارته عطل أو تلف؟ أيسلمها لأقرب من يمر به؟ أم يبحث عن أحسن مهندس يتقن تصليح ما أصاب سيارته من تلف؟

إذا كان هذا في إصلاح دنياه، فإن توقيه في إصلاح دينه أعظم وأخطر!

قال بعض السلف: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

والآن وبعد هذه الحقيقة المرة لنشرع في بيان وجوب الأدب مع أهل العلم بديننا العظيم على مختلف تخصصاتهم : سواءٌ أكان في العقيدة أو الفقه وأصوله وقواعده أو علوم القرآن - كالتجويد أو التفسير وغيرهما - **أو الحديث النبوي وشروحه أو السيرة النبوية وفقهها إلى غير ذلك من العلوم الإسلامية [60] .**

*** **** ***

60/ اثناء كتابتي لهذا المبحث وجدت عددا من المقالات ينادي أصحابها بما أنادي به من ضرورة الأدب مع العلماء وحفظ مكانتهم من قبل الخاصة والعامة وفي كل المجتمعات.

فهذا الأستاذ الدكتور:عبدالله بن محمد الطيار يقول : الناظر لأحوال أمة الإسلام في وقتنا الحاضر يرى مدى تقصير الناس في حق علمائهم، حيث أصبح الحديث عنهم فاكهة المجالس، والذم والقذف سمة بارزة عنهم، والتنقيص من قدرهم ظاهرة منتشرة بين بعض الناس، حتى أصبح فئام من الناس زاهدين فيهم وفي علمهم،فهل يليق بالمسلمين أن يفعلوا ذلك مع من عظّم الله شأنهم، وأعلى قدرهم، و أثنى عليهم، و أفاض عليهم من معين فضله. قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 18].

ثم قال : إن الإساءة للعلماء ليس ذنباً في حقهم فقط، بل يتعدى ضرره للمجتمع، ومتى ما كان المجتمع يقدر العلماء فليبشر بالخير والسعادة، ومتى ما حصل العكس فلا تسأل عن حال الناس. فالعلماء لهم احترام ومنزلة ولا يجوز الطعن فيهم ولا تنقصهم حتى لو حصل من بعضهم خطأ في الاجتهاد، فهذا لا يقتضي تنقصهم؛ لأنهم قد خطئون، ومع ذلك هم طالبون للحق، قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد))؛ متفق عليه - (مقال : مكانة العلماء في الأمة - الألوكة الشرعية) .

وهذا الدكتور:عبدالرحيم بن صمايل السلمي يقول : وبكل أسف فإن هذه الجرأة على العلماء أصبحت ظاهرة وبالذات على "علماء أهل السنة والجماعة"، وتصويرهم على أنهم شخصيات عادية أو أقل من عادية، هذا إن لم تكن الجرأة بالاحتقار والنقد البذي كالاتهام بالتكفير ودعم التطرف والإرهاب والسطحية والسذاجة في التفكير وإرجاع الناس إلى القرون الوسطى (المظلمة أوروبياً) ونحو ذلك.

ولعل هذه الحالة البائسة تدعونا إلى الاهتمام بـ"حقوق العلماء" في مناهج التعليم، الدروس العلمية، والخطب، والصحافة، والإعلام الفضائي، وتربية أبنائنا عليه، وإحياء فقه السلف الصالح في هذا الجانب من نسيجنا الاجتماعي الإسلامي. (مقال : من يحمي"حقوق العلماء"؟[1]- الألوكة الثقافية) .

المطلب الثاني

أهم الآداب المطلوبة مع أهل العلم في كل عصر ومصر

المحور الأول : وصية السلف بأهمية الأدب مع العلماء ونماذج عملية من حياتهم .

المحور الثاني : من مظاهر الأدب مع العلماء تقديراً لعلمهم .

المحور الثالث : من أهم الآداب الاعتذار للعلماء عند وقوعهم في الأخطاء .

لما قدمنا الخطأ الذي وقع فيه بعض الناس من عدم إنزال العلماء منزلتهم وإعطائهم ما يستحقون من التوقير والإجلال كان لزاما علينا أن نذكر أهم الآداب التي تردهم إلى الحق والصواب.

و ما سأذكره هنا من الآداب يختلف عما سبق ذكره من آداب الدارس مع شيوخه وأساتذته ، إذ المقصود هنا الآداب المطلوبة مع أهل العلم عموما بغض النظر عن علاقتك بهم أو أي أمر آخر.والآداب المطلوبة في هذا المقام كثيرة ، وسأختصر ذلك في ثلاثة محاور61:

المحور الأول

وصية السلف بأهمية الأدب مع العلماء ونماذج عملية من حياتهم

أولاً : جملة من وصاياهم رحمهم الله بالأدب :

قال خالد بن نزار رحمه الله تعالى : سمعت مالكاً يقول لفتى من قريش: تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم.

وقال عبيد الله بن جعفر رحمه الله تعالى : العلماء منار البلاد منهم يقتبس النور الذي يهتدى به .

وقال الحسين بن علي رضي الله عنهما لابنه: يا بني إذا جالست العلماء، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت، و لا تقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يمسك.

فَخَالِطْ رُوَاةَ الْعِلْمِ وَاصْحَبْ خِيَارَهُمْ   فَصُحْبَتُهُمْ زَيْنٌ وَخُلْطَتُهُمْ غَنْمُ

وَلَا تَعْدُوَنْ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ   نُجُومٌ إِذَا مَا غَابَ نَجْمٌ بَدَا نَجْمُ

فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْعِلْمُ مِمَّا اتَّضَحَ الْهُدَى   وَلَا لَاحَ مِنْ غَيْبِ الْأُمُورِ لَنَا رَسْمُ

وقال طاووس رحمه الله تعالى : (**من السنة أن يوقر أربعة: العالم وذو الشيبة والسلطان والوالد**).

61/ ملخصة من عدد من المقالات : مكانة العلماء في الأمة - الألوكة الشرعية – للأستاذ الدكتور عبدالله بن محمد الطيار- الألوكة الشرعية، وبيان مكانة العلماء والتأدب معهم - الشيخ عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر- الألوكة الشرعية ، والتأدب مع العلماء من شيم النبلاء – موقع المسلم ، ومنزلة العلماء في الإسلام - راغب السرجاني – قصة الإسلام . واستشارة : كيف نتعامل مع العلماء في حضرتهم وغيبتهم؟ - رقم الإستشارة: 280163 – ركن الاستشارات - تابع لإسلام ويب– بتصرف .

ويقول الفراء الحنبلي : أدب النفس ثم أدب الدرس. **وقال بعضهم لابنه:** يا بني! لأن تتعلم باباً من الأدب أحب من أن تتعلم سبعين باباً من أبواب العلم.

وقال مخلد بن الحسين لابن المبارك : نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث.

وذكر البرهان البقاعي أنه سأله بعض العجم أن يقرأ عليه فأذن له، فجلس متربعاً، فامتنع من إقرائه وقال له: أنت أحوج إلى الأدب منك إلى العلم الذي جئت تطلبه.أي: لأنه جلس أمامه متربعاً، ولم يجلس جلسة المتعلم التي وردت في حديث جبريل عليه السلام.

*** **** ***

ثانياً : صور من أدب السلف مع العلماء عند الاستماع إليهم واحترام آرائهم :

لقد فقه الصحابة والتابعون والصالحون من هذه الأمة الكريمة هذا القدر، فعظموا علماءهم، ورفعوا من قدرهم، وحفظوا لهم مكانتهم، ولم يعتبروا في ذلك بعرقٍ ولا نسبٍ ولا جنسٍ ولا عمرٍ ولا منصب، إنما اعتبروا فقط بالعلم، فكان معاذ بن جبل رضي الله عنه على صِغر سنه معظمًا جدًّا بين الصحابة، حتى إنهم كانوا لا يرفعون أعينهم في عينه حياءً منه وتعظيمًا له رضي الله عنه. هذا مع أنه مات وهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، ولكنه عُظِّم بالعلم الذي كان يحويه في صدره رضي الله عنه.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حقه -كما يروي أنس بن مالك رضي الله عنه: (وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ) [62].

ومن هنا نستطيع فهم الموقف الذي حكاه لنا أبو مسلم الخولاني رحمه الله (من التابعين)، وفيه يصور مدى احترام وتعظيم الصحابة لمعاذ بن جبل رضي الله عنه مع حداثة سنه، يقول أبو مسلم الخولاني: "أَتَيْتُ مَسْجِدَ أَهْلِ دِمَشْقَ فَإِذَا حَلْقَةٌ فِيهَا كُهُولٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم، وَإِذَا شَابٌّ فِيهِمْ أَكْحَلُ الْعَيْنِ بَرَّاقُ الثَّنَايَا، كُلَّمَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ رَدُّوهُ إلى الْفَتَى فَتًى شَابٌّ -وفي رواية أخرى: ولا يصدرون إلا عن رأيه- قَالَ: قُلْتُ لِجَلِيسٍ لِي: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ" .

62/ الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل (3790)، و ابن ماجه (154)، وأحمد (14022)، و ابن حبان (7137)، والطيالسي (2096)، وقال الألباني: صحيح (1224) السلسلة الصحيحة.(منزلة العلماء في الإسلام - راغب السرجاني – قصة الإسلام) .

فقد وصف أبو مسلم الصحابةَ الذين هم حول معاذ رضي الله عنه بأنهم "كهول"، أي شيوخ كبار في السن، ورغم ذلك -وكما جاء في الحديث- فكانوا يرجعون فيما يختلفون فيه وفيما لا يُدركون له حلاً إلى معاذٍ وهو يومئذ فتًى شاب، ولم يكن ذلك إلا لعلمه وفقهه رضي الله عنه.

وقد جاء في رواية أن هؤلاء الأصحاب كانوا نحو من ثلاثين كهلاً من الصحابة .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنته في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سرًّا، ولا تغتابن أحدًا عنده، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته .

وها هو الصحابي الجليل عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما يجل ويقدر زيد بن ثابت رضي الله عنه مع أن زيداً كان مولى، و ابن عباس هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الشعبي رحمه الله: صلى زيد بن ثابت على جنازة، ثم قربت له بغلة ليركبها، فجاء ابن عباس - رضي الله عنهما - فأخذ بركابه، فقال له زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال ابن عباس: هكذا يفعل بالعلماء والكبراء .

***   ****   ***

ثالثاً : اهتمام السلف بالأدب مع العلماء تقديراً لعلمهم :

يقول إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى : كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته وإلى صلاته وإلى حاله، ثم يأخذون عنه.

وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى : (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم) فلابد أن يدقق الإنسان أولاً قبل أن يتلقى العلم، وأن ينظر في سمت وحال من يتلقى منه العلم.

وذلك هو ما فعله الإمام مالك رحمه الله تعالى، حيث يقول: رأيت أيوب السختياني بمكة حجتين فما كتبت عنه، ورأيته في الثالثة قاعداً في فناء زمزم، فكان إذا ذُكر النبي صلى الله عليه وسلم عنده يبكي حتى أرحمه، فلما رأيت ذلك كتبت عنه.أي أنه كان رقيق القلب شديد التعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أنه كان يسمع كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيبكي، وليس بكاءً عادياً، وإنما كان يتمادى في البكاء، حتى إن من يجالسونه كانوا يرحمونه ويشفقون عليه لشدة تأثره وشوقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

رابعاً: من التأدب مع العلماء إضافة إلى الإنصات عندما يتحدثون وعدم مقاطعتهم:

أن يتأدب السائل في عبارته عند سؤاله للعالم، فيقول أحسن الله إليك، أو يقول عظّم الله أجرك ما حكم كذا، أو أشكل عليّ كذا، وهذا بلا شك من التواضع للعالم والتقدير له.

قال الشعبي رحمه الله تعالى: جالسوا العلماء فإنكم إن أحسنتم حمدوكم، وإن أسأتم تأولوا لكم وعذروكم، وإن أخطأتم لم يعنفوكم، وإن شهدوا لكم نفعوكم.

قال ابن جماعة الكناني رحمه الله تعالى - في كتابه تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم- متحدثاً عن أدب طالب العلم مع شيخه: أن ينظر إلى الشيخ بعين الإجلال؛ فإن ذلك أقرب إلى نفعه به.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله : كنت أتصفح الورقة بين يدي مالك صفحاً رفيقاً هيبة له، لئلا يسمع وقعها.

وقال الربيع رحمه الله تعالى: والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليّ هيبة له. وينبغي أن لا يخاطب شيخه بتاء الخطاب وكافه - أي كاف الخطاب- ولا يناديه من بُعد، يقول يا سيدي ويا أستاذي.

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى : يقول أيها العالم وأيها الحافظ ونحو ذلك، وما تقولون في كذا وما رأيكم في كذا وشبه ذلك، ولا يسميه في غيبته أيضاً باسمه إلا مقروناً بما يشعر بتعظيمه، كقول قال الشيخ أو الأستاذ.

*** **** ***

المحور الثاني

من مظاهر الأدب مع العلماء تقديراً لعلمهم

هذه الآداب نتيجة طبيعية تصدر عن كل من رسخ في قلبه وعقله وجوب تعظيم من أمر الله بتعظيمه فعرف قدر العلماء و انزلهم منزلتهم ، وهي ملخصة من كلام بعض العلماء [63] :

1- حبّهم : فهم ورثة الأنبياء عليهم السماء، وسادة الأتقياء، قال ابن المبارك رحمه الله: (كن عالما أو متعلّما، أو محبّا لهما، ولا تكن الرّابع فتهلك).

وصدق رحمه الله تعالى، وكأنّه استنبط ذلك من الحديث الّذي رواه التّرمذي بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: (الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ ما فِيهَا، إلاَّ ذِكرَالله تَعَالى، وَمَا والاهُ، وَعَالِماً، أوْ مُتَعَلماً).

وقد قرّر أهل الحكمة والحلم، أنّه لا يُنال السّؤدد ولا العزّإلاّ بالعلم، لذلك رفع الله قدر الأنبياء والعلماء، فكانوا في درجاتٍ ما بينها كما بين الأرض والسّماء، فمحبّ أهل العلم مرحوم محبوب، ومبغضهم محروم محجوب.

وكيف لا يحبُّ المسلم من أحبّه الحوت في البحر، والنّملة في الجحر حتّى استغفروا له ؟! قال صلّى الله عليه وسلّم: (وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ) رواه أبو داود والتّرمذي.

*** **** ***

2- ذكرهم بالثناء الجميل ومدحهم بما فيهم :

سواء مع الأموات منهم رحمهم الله، ومع الأحياء، وسواء طلب على أيديهم العلم أم لم يطلبه عليهم.

قال الإمام الطّحاوي رحمه الله تعالى وهو يبيّن عقيدة السّلف الصّالح : "وعلماء السّلف من السّابقين، ومَنْ بعدهم مِنَ التّابعين، أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنّظر، لا يُذكرون إلّا بالجميل، ومَنْ ذكرهم بسوء فهو على غير سبيل ".

63/ الآداب الشّرعيّة (15) التّعامل مع أخطاء لعلماء – موقع نبراس الحق – بتصرف .

أي ضلّ عن سبيل المؤمنين الذي أوعد الله تعالى الحائد عنه قائلا:(نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً).

فينبغي للمسلمين عامّة، وطلاّب العلم خاصّة، أن يحفظوا هذا الحقّ لهم، وإذا ذكروهم في مجالسهم أن يذكروهم بالجميل، لأنّه إذا كان حفظُ عرض المسلم الّذي هو من عامّة المسلمين فريضةً ينبغي حفظها، فكيف بالعلماء ؟!

وبمجرّد ما تحسّ من جليسك أنّه يريد أن ينتقص عالما، ففِرّ بدينك قبل أن يسلبك شيئا من حسناتك،وانج بنفسك لأنّه قد أعلن الحرب على نفسه: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ).

وإذا لم يَغَرْ المسلم لله على العلماء، فعلى من يغار ؟! فهم صفوة الله وأحبّاؤه، وخيرة خلقه وأولياؤه.

*** **** ***

3- ذكرهم بالإجلال والتّعظيم :

فتذكره بالعلم، والإمامة، وتشرّفه وتكرّمه، تقول:" قال الإمام رحمه الله، وقال الشّيخ، وتميّزه عند ذكره عن عامّة النّاس بهذه الألقاب، فإنّ الله أدّب أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال:(لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً)، والعلماء ورثة الأنبياء، فلا يقال: قال فلان وفلان ... يذكره باسمه مجرّدا !

جاء عن ابن أبي مليكة قال: ذُكر ابن الزبير عند ابن عباس، و ابن الزبير و ابن عباس أعمارهما متقاربة، وهما صحابيان من صغار الصحابة، وكان بينهم أحياناً بعض ما يكون بين الناس، ومع ذلك انظروا ماذا قال، يقول ابن عباس في ابن الزبير: قارئ لكتاب الله، عفيف في الإسلام، أبوه الزبير وأمه أسماء وجده أبو بكر وعمته خديجة، وخالته عائشة، وجدته صفية، والله إني لأحاسب نفسي له محاسبة لم أحاسب بها لأبي بكر وعمر[64].

4- الاعتناء بردّ الجميل لهم :

فمن نحن لولا الله عزّوجلّ، ثمّ عِلْمُ هؤلاء العلماء ؟! من نحن لولا الله تعالى، ثمّ هؤلاء الأئمّة الّذين فسّروا لنا كتاب الله، وبيّنوا لنا أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟

64/ سير أعلام النبلاء – الذهبي -(4/ 400).

لقد وقفوا عند كلّ كلمة من كتاب الله، وسنّة نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم، فبيّنوا حلالها وحرامها، وأوضحوا ناسخها ومنسوخها، وفصّلوا حدودها ومحارمها، فرحمة الله عليهم أحياء وأمواتا، ونسأل الله ربّ العرش الكريم أن يُسبغ عليهم شآبيب الرّحمات، وأن يوجب لهم علوّ الدّرجات، وأن يجمعنا بهم في رياض الجنّات.

فينبغي للمسلم إذا قرأ كتابا، أو استمع إلى كلام عالم أن يترحّم عليه ويدعو له، لأنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: (مَنْ صَنَعَ لَكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا فَادْعُوا لَهُ) رواه أبو داود.

تمرّ عليك المسألة في الأحكام، ويمرّ عليك حديث من أحاديث المصطفى عليه الصّلاة والسّلام، لا تدري أهو صحيح أم ضعيف ؟! ثمّ لا تدري ما المراد منه ؟! أهو عامّ أم خاصّ !؟ أهو مطلق أم مقيّد ؟! فإذا وقفت أمام كلام العالِم، أدركت حقيقة المراد، فما تملك إذا اطّلعت على هذا الخير إلاّ أن تقول: رحمة الله على فلان !

*** **** ***

5- نشر فضلهم بين الأحياء :

وهذا من أوكد حقوق لعلماء، لأنّ فيه ربطا للنّاس بعلمائهم، وتعريفا لهم بأمجادهم، وهذا له صور متعدّدة:

أ) مطالعة سيرهم، ونشأتهم، ومعرفة مؤلّفاتهم، ورحلاتهم في طلب العلم، حتّى إنّ بعض المشايخ كان يذكر لنا دائما أنّ من الأمور الّتي ينبغي لطالب العلم معرفتها والاعتناء بها: تاريخ ولادتهم ووفاتهم.

وهذا الأدب أصبح اليوم آكد من أيّ وقت آخر، في زمن عُظّم فيه السّفهاء والماجنون، والبلهاء واللاّعبون.

ب) نسبة العلم إليهم: فإذا قرأت فائدة، أو نقلت علما نبّه عليه إمام من أئمة الدّين، كان من الحقّ له عليك أن تُنوّه بفضله في ذلك، فتقول: كما قرّره شيخ الإسلام فلان، وكما بيّنه الحافظ فلان، ولا توهم النّاس أنّ الفضل - بعد الله – لك وحدك ! وإنّما عليك أن تُنصفهم، وتذكر مآثرهم، وتبيّن فضلهم.

هذا ما يعرّف النّاس قدر العلماء، ويجعلهم يدركون فضلهم، ويغارون عليهم من أن يُنتقص قدرهم، وأن تهان مكانتهم.

وها هنا جملة من الآداب التي لا تحتاج إلى طويل شرح :

1- الدعاء لهم في حياتهم وبعد وفاتهم كما كان الإمام أحمد يفعل مع الشافعي، حتى سألته ابنته وقالت من هذا الذي أراك تدعو له دائماً .

2- عدم رفع الصوت أو الكلام في حضرتهم.

3- الكف عن ذكرهم بالسوء في غيبتهم (لأن لحوم العلماء مسمومة وعادة الله فيمن ينالون منهم معلومة) كما قاله ابن عساكر رحمه الله .

4- عدم الإكثار عليهم عند الملل.

5- ستر ما ظهر من عيوبهم.

6- عدم مقارنتهم مع غيرهم.

7- البعد عن إحراجهم أو اختبارهم بالأسئلة.

*** **** ***

المحور الثالث

من أهم الآداب الاعتذار للعلماء عند وقوعهم في الأخطاء

هذا الأدب من جملة ما هو مطلوب في تعامل المسلمين مع العلماء ولكن لما كان غاية في الأهمية في هذا العصر ولطول الكلام عليه أفردته في هذا المحور ، وغالبية ما فيه إنما هو من كلام أهل العلم .

فالكلام في هذه المسألة قبل فترة ليست بالطويلة، كان من جملة إيضاح الواضحات؛ لأنّ التماس المعاذير لأهل العلم يُعدّ من المسلَّمات، ومن الواجبات المحتّمات، ولكن لمّا اختلط الحابل بالنّابل، والتبس الحقّ بالباطل، أصبح لزاما علينا ونحن نتحدّث عن هذا الحقّ الثّابت لأهل العلم: أن نبيّن قواعد ثلاثا تزيل كثيرا من الإلباس العلم [65] .

القاعدة الأولى: مَنِ المقصود بالأئمّة أهل حسن الظّن والاعتذار:

إنّهم أئمّة الكتاب والسّنة على منهج وفهم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ومَنْ تبعهم بإحسان، الّذين عُرِفوا بتحرّي الاستدلال مِنْ هذا المعين الصّافي، والمنبع الكافي: لا يقدّمون في باب العقائد قواعد أهل الكلام على كلام ربّ البريّة. ولا يقدّم في باب الأحكام آراء الرّجال مع وجود النّصوص الشّرعية.ولا يقدّم في باب السّلوك والتّربية كلام غلاة الصّوفيّة.

ولا يقدِّم في مجال الدّعوة وطريقِها الأفكار البشريّة، والسّياسات الوضعيّة، والنّزعات الحزبيّة.

فَمَنْ كانت هذه طريقته في الاستدلال، فهو السّنّي وإن أخطأ، وإن وقع في بدعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - فيمن وقع في بدعة من البدع - : " ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولا يفارقون به جماعة المسلمين، يوالون عليه ويعادون، كان من نوع الخطأ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك، ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمّة و أئمّتها، لهم مقالات قالوها باجتهاد، وهي تخالف ما ثبت في الكتاب والسنّة.

بخلاف مَنْ والى موافِقَه، وعادى مخالِفَه، وفرّق بين جماعة المسلمين، وكفّر وفسّق مخالِفَه دون موافِقِه في مسائل الآراء والاجتهادات، واستحلّ قتال مخالفه دون موافقه، فهؤلاء من أهل التفرّق والاختلافات.

65/ الآداب الشّرعيّة (16) التّعامل مع أخطاء لعلماء – موقع نبراس الحق – بتصرف .

ولهذا كان أوّل من فارق جماعة المسلمين من أهل البدع: الخوارج المارقون، وقد قاتلهم أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فلم يختلفوا في قتالهم كما اختلفوا في قتال الفتنة يوم الجمل وصفين" [66] .

وقوله رحمه الله : " ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمّة و أئمّتها لهم مقالات قالوها باجتهاد وهي تخالف ما ثبت في الكتاب والسنّة "، يقصد به : بعض بحار هذا العلم : كعكرمة، والثّوري، وسعيد بن جبير، والضّحاك، ومقاتل، وغيرهم كثير ممّا لا يمكن إحصاؤه رحمهم الله.

إذن فهذا الكلام عن المقتدين بالكتاب والسنّة، أمّا المتّبعون لأهوائهم من المبتدعة وغيرهم، فليس على مثلهم يُلوى، ولا على مثلهم يحزن.

*** **** ***

القاعدة الثّانية : لا بدّ من بيان الخطأ :

إذا علمنا أنّ هذا العالِم الو اقع في هذا الخطأ لا يزال معتبَراً من أئمّة الدّين، فهذا لا يعني أبدا ألاّ يبيّن خطؤه.

فهناك طائفة فرّطت فقالت: نسكت على الأخطاء والزلاّت، ونغطّي الهفوات والهِنات ؛ وطائفة أفرطت قالت: لا بدّ من التّشهير بهم والتّحذير منهم ؛ والحقّ وسط لا نقص ولا شطط .. فلا بدّ من بيان الخطأ لكن في أدب .

لأنّ بيان الخطأ واجب شرعيّ، وهو من الميثاق الذي أخذه الله تعالى من العلماء، ولا يزال العلماء سلفا وخلفا يتكلّمون في المسائل المختلَف فيها، ويبيّنون الصّواب، ويدمغون به الباطل.

القاعدة الثّالثة: لا بدّ من الأدب والرّفق في النّصح وبيان الخطأ :

إذا كان هذا المخطئ لا يزال في دائرة أهل السنّة، وكان لزاما بيان ما وقع فيه من الخطأ، فلا بدّ من الأدب والرّفق في النّصح وبيان الخطأ ؛ لأنّ الحقّ بطبعه ثقيل، فإذا أسبغت عليه طابَع الشّدة نفِر منك السّامع، ولم يتحقّق المقصود وهو: بيان الحقّ والدّعوة إليه.

هذا حقّ المسلم على المسلم، أن يجد الأعذار كلّ منهما للآخر، وأن يعطف كلّ منهما على الآخر، وأن يحبّ كلّ منهما الخير للآخر، ما دام الجميع قد أجمع على أنّه لا معصوم من البشر سوى

66/ مجموع الفتاوى - (349/3) .

الأنبياء عليهم السلام، والكمال المطلق لله تعالى. فالعالم أولى بهذا الحقّ من غيره، إذ فضلهم مشهور، وذنبهم بعد الاجتهاد مغفور.

و اقرأ في كتب الأئمّة الأعلام الّذين ملئوا الدّنيا بمصنّفاتهم، تجد الأدب الجمّ ، تجد التّواضع والاحترام والتّقدير والإجلال .. تجد حفظ الفضل لأهله .

- تجد الأئمّة الحفّاظ إذا اطّلعوا على شيء من الخطأ ، قالوا: (وقد قال فلان - عفا الله عنه – كذا)، (وفيه كلامه نظر)، (ولم يُصِب رحمه الله حين قال كذا ...)، كلّ ذلك من باب الأدب.

- ولذلك قال الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم:(عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)، فقدّم له المغفرة والعفو، قبل العتاب واللّوم، لذلك ينبغي التّأدّب مع الأئمّة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

- وقد حقّق ابن تيمية رحمه الله تحقيقا ماتعا القاعدة في التّعامل مع المخالف، فبيّن وجوبَ التّفريق بين كلام العالم وشخصه : فيجب بيان الخطأ المسطور ورِدّه، أمّا الشّخص:

أ) فقد يكون صادقا في خدمة الدّين، ولا يتعمّد الكذب.

ب) وقد يجتهد، ويكون ما قاله هو مبلغ علمه، أو مقلّدا.

ت) ملاحظة ما مات عليه فقد يكون قد تاب.

ث) ملاحظة الجهود المبذولة في نصرة الحقّ.

- وقال ابن القيّم رحمه الله :

" من قواعد الشّرع والحكمة أيضا: أنّ من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنّه يحتمل له مالا يحتمل لغيره، ويُعْفَى عنه مالا يُعْفَى عن غيره؛ فإنّ المعصية خبث والماء إذا بلغ قلّتين لم يحمل الخبث.بخلاف الماء القليل، فإنّه لا يحمل أدنى خبث، ومن هذا قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لعمر: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ).

وهذا هو المانع له صلّى الله عليه وسلّم من قتل من حَسَّ عليه وعلى المسلمين، وارتكب مثل ذلك الذّنب العظيم، فأخبر صلّى الله عليه وسلّم أنّه شهد بدرا، فدلّ على أنّ مقتضى عقوبته قائم،

لكن منع من ترتّب أثره عليه ما له من المشهد العظيم، فوقعت تلك السّقطة العظيمة مغتفرةً في جنب ماله من الحسنات ". [67]

- وقال شمس الدّين بحقّ الإمام الذّهبي في ترجمة الإمام ابن خزيمة رحمه الله تعالى [68]:

" ولو أنّ كلّ من أخطأ في اجتهاده مع صحّة إيمانه، وتوخّيه لاتّباع الحقّ أهدرناه وبدّعناه، لقلّ من يسلم من الأئمّة معنا، رحم الله الجميع بمنّه وكرمه ".

وقال أيضا " في ترجمة الإمام ابن حبّان رحمه الله بعد ما ذكر إنكار النّاس عليه قوله " النبوّة العلم والعمل "، وكيف حكموا عليه بالزّندقة ! وهُجِرَ! وكتِب فيه إلى الخليفة ! فكتب بقتله:

" هذه حكاية غريبة، و ابن حبّان من كبار الأئمّة، ولسنا ندّعي فيه العصمة، لكن هذه الكلمة التي أطلقها قد يطلقها المسلم، ويطلقها الزّنديق الفيلسوف، فإطلاق المسلم لها لا ينبغي، لكن يُعتذر عنه، فنقول: لم يُرِد حصر المبتدأ في الخبر، ونظير ذلك قوله صلّى الله عليه وسلّم: (الحَجُّ عَرَفَةُ)، ومعلوم أنّ الحاجّ لا يصير بمجرّد الوقوف بعرفة حاجّا، بل بقي عليه فروض وواجبات، و إنّما ذكر مهمّ الحجّ، وكذا هذا، ذكر مهمّ النبوّة، إذ من أكمل صفات النبيّ كمال العلم والعمل، فلا يكون أحد نبيّا إلاّ بوجودهما..أمّا الفيلسوف فيقول: النبوّة مكتسبة ينتجها العلم والعمل، فهذا كفر ولا يريده أبو حاتم أصلا، وحاشاه "اهـ[69].

- وروى الخطيب رحمه الله في " الكفاية " عن ابن المسيّب قال: ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل إلاّ وفيه عيب، ولكن من كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصه لفضله.

الشّاهد: أنّه يحرم تتبّع عثرات العلماء، والتنقيب عن أخطائهم، والتّشهير بهم، والحطّ من مرتبتهم، فإنّه نقص كبير وشرّ مستطير.

ولا ينبغي لنا أن نتقمّص قميص النّساء في كفرانهنّ للعشير، يحسن إليها زوجها الدّهر كلّه، فإذا رأت منه ما تكره قالت: ما رأيت منك خيرا قطّ !

قد ينبت الدّم على مرعى الثّرى　　وتبقى حزازات النّفوس كما هيا

أيذهب يوم واحد إن أسأته　　بصالح أيّامي، وحسن بلائيا

67/ مفتاح دار السّعادة - (176/1) .

68/ سير أعلام النّبلاء - (374/14) .

69/ سير أعلام النّبلاء - (96/16) .

وعين الرّضا عن كلّ عيب كليل   ولكنّ عين السّخط تبدي المساويا

روى أبو داود عن أبي برزةَ الأَسلميِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: (يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلْ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ ! لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ).

ومن محاسن ما ذكره العلماء: ما رواه البيهقيّ في " شعب الإيمان " أنّ سفيان بن حسين رحمه الله قال: ذكرت رجلا بسوء عند إياس بن معاوية، فنظر في وجهي وقال: أغزوت الرّوم ؟! قلت: لا، قال: أغزوت السّند والهند والتّرك ؟ قلت: لا، قال: أفسلم منك الرّوم والهند والسند والترك ولم يسلم منك أخوك المسلم ؟! فلم أعُد بعدها أبدا.

وقال ابن المبارك رحمه الله: المؤمن يلتمس المعاذير، والمنافق يتتبّع الزّلاّت.

وقال آخر: المؤمن يستروينصح، والمنافق يهتِك ويفضح.

ختاماً: فهلا تأدبنا مع علمائنا الأجلاّء -أيها النبلاء- أسوة بسلفنا الصالح -رضي الله عنهم ورحمهم- فعنهم أخذنا العلم، وبهم بلَغنا دين الله تعالى، رحم الله من مات منهم، وحفظ الأحياء، وبارك لنا في علمهم، وأمد في أعمارهم، وجزاهم عنا وعن أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- أفضل الجزاء وأوفاه.

*** **** ***

الخاتمة

أبيات من قصيدة قُم لِلمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَبجيلا [70]

قُم لِلمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَبجيلا ... كادَ المُعَلِّمُ أَن يَكونَ رَسولا

أَعَلِمتَ أَشرَفَ أَو أَجَلَّ مِنَ الَّذي ... يَبني وَيُنشِئُ أَنفُساً وَعُقولا

سُبحانَكَ اللَهُمَّ خَيرَ مُعَلِّمٍ ... عَلَّمتَ بِالقَلَمِ القُرونَ الأولى

أَخرَجتَ هَذا العَقلَ مِن ظُلُماتِهِ ... وَهَدَيتَهُ النورَ المُبينَ سَبيلا

وَطَبَعتَهُ بِيَدِ المُعَلِّمِ تارَةً صَدِئَ ... الحَديدُ وَتارَةً مَصقولا

أَرسَلتَ بِالتَوراةِ موسى مُرشِداً ... وَابنَ البَتولِ فَعَلِّمِ الإِنجيلا

وَفَجَرتَ يَنبوعَ البَيانِ مُحَمَّداً ... فَسَقى الحَديثَ وَناوَلَ التَنزيلا

عَلَّمتَ يوناناً وَمِصرَ فَزالَتا ... عَن كُلِّ شَمسٍ ما تُريدُ أُفولا

وَاليَومَ أَصبَحَتا بِحالِ طُفولَةٍ ... في العِلمِ تَلتَمِسانِهِ تَطفيلا

مِن مَشرِقِ الأَرضِ الشَموسُ تَظاهَرَت ... ما بالُ مَغرِبِها عَلَيهِ أُديلا

يا أَرضُ مُذ فَقَدَ المُعَلِّمُ نَفسَهُ ... بَينَ الشُموسِ وَبَينَ شَرقِكِ حيلا

ذَهَبَ الَّذينَ حَمَوا حَقيقَةَ عِلمِهِم ... وَاستَعذَبوا فيها العَذابَ وَبيلا

في عالَمٍ صَحِبَ الحَياةَ مُقَيَّداً ... بِالفَردِ مَخزوماً بِهِ مَغلولا

صَرَعَتهُ دُنيا المُستَبِدِّ كَما هَوَت ... مِن ضَربَةِ الشَمسِ الرُؤوسُ ذُهولا

الجَهلُ لا تَحيا عَلَيهِ جَماعَةٌ ... كَيفَ الحَياةُ عَلى يَدَي عِزريلا

---

[70]/ هذه الأبيات جزء من القصيدة المشهورة للشاعر الشهير أحمد شوقي أحمد بن علي بن أحمد شوقي. أشهر شعراء العصر الأخير، يلقب بأمير الشعراء، مولده ووفاته بالقاهرة، كتب عن نفسه: (سمعت أبي يردّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب) نشأ في ظل البيت الملك بمصر، وتعلم في بعض المدارس الحكومية، وقضى سنتين في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق، وارسله الخديوي توفيق سنة 1887م إلى فرنسا، فتابع دراسة الحقوق في مونبلية، واطلع على الأدب الفرنسي وعاد سنة 1891م فعين رئيساً للقلم الإفرنجي في ديوان الخديوي عباس حلمي. وندب سنة 1896م لتمثيل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين بجينيف. عالج أكثرفنون الشعر: مديحاً، وغزلاً، ورثاءً، ووصفاً، ثم ارتفع محلقاً فتناول الأحداث الاجتماعية والسياسية في مصروالشرق والعالم الإسلامي وهو أول من جود القصص الشعري التمثيلي بالعربية وقد حاوله قبله أفراد، فنبذهم وتفرد. وأراد أن يجمع بين عنصري البيان: الشعروالنثر، فكتب نثراً مسموعاً على نمط المقامات فلم يلق نجاحاً فعاد إلى الشعر.

وَاللهِ لَولا أَلسُنٌ وَقَرائِحٌ دارَت عَلى فِطَنِ الشَبابِ شَمولا

وَإِذا المُعَلِّمُ لَم يَكُن عَدلاً مَشى روحُ العَدالَةِ في الشَبابِ ضَئيلا

وَإِذا المُعَلِّمُ ساءَ لَحظَ بَصيرَةٍ جاءَت عَلى يَدِهِ البَصائِرُ حولا

وَإِذا أَتى الإِرشادُ مِن سَبَبِ الهَوى وَمِنَ الغُرورِ فَسَمِّهِ التَضليلا

وَإِذا أُصيبَ القَومُ في أَخلاقِهِم فَأَقِم عَلَيهِم مَأتَماً وَعَويلا

إِنّي لَأَعذُرُكُم وَأَحسَبُ عِبئَكُم مِن بَينِ أَعباءِ الرِجالِ ثَقيلا

وَإِذا النِساءُ نَشَأنَ في أُمِّيَّةً رَضَعَ الرِجالُ جَهالَةً وَخُمولا

لَيسَ اليَتيمُ مَنِ اِنتَهى أَبَواهُ مِن هَمِّ الحَياةِ وَخَلَّفاهُ ذَليلا

فَأَصابَ بِالدُنيا الحَكيمَةِ مِنهُما وَبِحُسنِ تَربِيَةِ الزَمانِ بَديلا

إِنَّ اليَتيمَ هُوَ الَّذي تَلقى لَهُ أُمّاً تَخَلَّت أَو أَباً مَشغولا

ما أَبعَدَ الغاياتِ إِلّا أَنَّني أَجِدُ الثَباتَ لَكُم بِهِنَّ كَفيلا

فَكِلوا إِلى اللهِ النَجاحَ وَثابِروا فَاللهُ خَيرٌ كافِلاً وَوَكيلا

*** **** ***

اللَّهُمَّ إِنّي أَسْأَلُكَ عِلْمَاً نَافِعَاً، وَقَلْبَاً خَاشِعَاً ، وَنُوراً سَاطِعَاً، وَرِزْقَاً وَاسِعَاً وَشِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وَنَسْأَلُكَ الْغِنَى عَنِ النَّاسِ . رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي. رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحَاً تَرْضَاهُ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ. رَبِّ اغْفِرْ وارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ .

تمَّتْ الرسالة وللّهِ الحَمْدُ والمنَّةُ

*** **** ***